عائد خصباك

الموقعة

مجموعة قصص

المرقبة . . .

الطبعـة الأولى

شباط ـ ١٩٧٠

مطبعة الغرى الحديثة : النجف ☎ ٢٦٨٢

عائد خصباك



منشورات دار الكلمة

٢٠

ملاحظات :

عبد الرحمن طهمازي

أعلن « لوتريامون » وهو شاعر استثنائي ، استدارته لعالمه الشخصي ، بينما كان يوصل نفسه الى آخر بقعة غير مكتشفة ، وبدافع الأمل كذلك ، انه يود من الشعر أن يكتبه الجميع . من الناحية الشكلية ، كان لوتريامون يناقض نفسه ومواضيعه ، الا انه ، بعد أن لا نراوغ في الفهم ، كان يأمل ذلك بسبب من نفسه ومن مواضيعه ، أي انه يوّد المشاركة ، ويدعو الى معاضدة وتعزيز قوى الشاعر .

ان هذا الشعور ، بالفقدان الشخصي ، يحمل ، بصورة لا تدعو الى كثير من الاستنتاجات ، على الاعتقاد انه بالأمكان السير بشارع عام ، وان مشاريع السعادة الشخصية يقع الجزء الكبير منها في العصا التي يحملها الآخر ، وقد عبر ماركس ، ولو بمنطق آخر يقع في الجانب المقابل بعد احتوائه للقواعد الثانية ، عن هذه الفكرة ، وأحالها على المستقبل ، لانه كان

لا يعتقد الا بحدود الامكانات الموضوعية ، ولأنه وهذا الاساس كان يؤمن ان تطور التاريخ الانساني لا يستنفذ بالشقاء العالمي أنيا بالصراع الطبقي .

ان مشاكل الطبقات ، وعلى وجه الخصوص ، اغتراب العمال ، والاستلاب الجماعي الذي يعيشه صغار الفلاحين ، له شروطه المادية التي تقع أولاً خارج الأدب والفن ، وهذا بديهي ، لكن الانتماء الى هذه الشروط بدافع الوعي الطبقي ومحاولة رفضها ، هو أكمل وضع يصل اليه الأديب الثوري الإشتراكي .

ان الاقتراب من المناخ الاخلاقي العمالي ، هو طريق عام للمناضلين ، ينضوي فيه الأدباء كذلك مع كل الذين اختاروا طوعياً ، قطبية النضال من أجل الاشتراكية . وهكذا فان التعقيب على النضالات العادلة ، ورصدها من الخارج ، وفصل بعضها عن بعض والدخول الى تحليلها من أبواب عامة ، لا يمكن ، بأي حال من الأحوال أن يعتبر ، وفي أفضل حالاته فنية وانسانية ، سوى صيغة مترهلة ورثة من التعاطف العام أمام الإنسان ، وهو لا يزال في تطاحنه الطبقي قبل ان يصفى بالثورة والغاء الطبقات .

هذه هي الوضعية التي أود ان اضع الأديب العراقي في

نهايتها ، حتى يتسنى له ، بحدود قدراته ، والتي هي من الوضوح
بحيث لا تستدعي الشرح ، ان يقرر مدى تغطيته لنسبة منها
نظراً للظروف التأريخية للطبقات الاجتماعية ، والتي ليس من
الممكن اجتيازها كلية .

ليس كل قصيدة تتحدث عن عامل هي قصيدة عمالية ،
وليس كل قصة بطلها عامل قصة عمالية ، كما ان غياب العامل
عن قصة أو قصيدة ليس نفيا لعماليتها ، ان كل عمل ادبي ، اذا
اردنا تفسيره بصورة اجتماعية ، يجب معاملته بأعلى درجات
الانتباه والوعي ، كما انه من الضروري المعرفة بالصيد الذي
نريد التعرف على نوعيته ، وهذا يتطلب وعياً شمولياً بالانسان
أولاً ، ووعياً تاريخياً بالطبقات .

ان هنالك فرقاً كبيراً بين العامل وغيره ، لسبب بسيط ،
هو أنه عامل فعملية الايضاح تتم بالشرط الذي وضعناه في
البداية وهو الانتماء ، ولو وقت الكتابة ، الى العمال ، والانتماء
ليس حالة محصورة لها نتائج كتابية محددة .

ان احتيال الكاتب على اللغة يحدث ، كما ان القاريء
يستطيع الاحتيال على كاتب رديء ، لكن الاثنين لا يمكنهما
الاحتيال وتبديل مواقع الناس ، بأية نية .

لقد وضع الأديب العراقي نفسه امام « النتائج » لذلك

فان مواضيعه كانت أخلاقية سهلة بصورة عامة ، أما على صعيد الأدب الطبقي فان المنطلق نفسه يبقى ثابتاً . لكننا سنضطرب كثيراً امام هذا الادب ، الذي لم يستطع ان يتطابق بصورة ناضجة ، مع تبدلات كبيرة ، ادارية واجتماعية ، ماذا حدث بعد سقوط النظام الملكي مثلاً على صعيد الأدب ؟

نعم حدث تبدل ، لكنه في اغلبه تلفيق .

ان الأدب الاجتماعي ليس قصديا يهتم بالثروة مثلاً ، أو يلاحق السعادة الاقتصادية بالنقد الصارم ، لان هذا من مهمات الاقتصاد السياسي ؛ لكن الأدب الجيد ، بصورة عامة يلتحق دائماً بالانسان بمختلف انحداراته الطبقية .

كان الأديب العراقي مواليا لطبقته ، أو متحولاً عنها بدافعها ، اي الى ظروف عيش أحسن ضمن الامكانات الموضوعية القائمة في مجتمع الاستغلال ، وهكذا يلتمس النقد الادبي ، في الرواية والقصة والشعر ، المجتمعية المهادنة ، أو بعبارة اخرى التسويات الكاذبة التي تضع « خط الرجعة » البرجوازي في في مقدمة الأفكار ، واذا أخذنا ، نوعية وتطور الطبقات الاجتماعية في العراق ، بعين الاعتبار فاننا سنجد المفارقة المضحكة ، قائمة لحد الآن : ادباء لا زالوا على العهد مع طبقاتهم . . أقوياء الشكيمة جداً .

ان الأديب العصري لا يعيش وصفا نفسيا ، كما ان الكتابة وحدها لا تمثل حلاً الآن ، والعالم لا يستدعي الاعجاب والغبطة كما ان البحث عن المواضيع ليس مهمة جيدة في الكتابة ، لكن أديبنا لا زال منغمراً بهذه الاوضاع ، أودّ ان اضع بعض الأمثلة :

تم سحب بعض الوقائع الاجتماعية أدبياً الى مواضع متعددة بعد تجريدها من خصائصها تماماً واستبدالها بتفسيرات اعتسافية والقائها في غير أماكنها ، اما الى السياسة أو الى الأدب التجريدي ونغض النظر الآن عن نقد ذلك كلية ، ولكننا سنفحص ماذا يحدث في هذه الحالة .

كان القاص مثلاً يهتم بالشعارات في العهد الملوكي ، ويضع أبطاله المشبوهين في أماكن سرية حفاظاً عليهم من الشرطة ، ولا زال يفعل ذلك ، صحيح ان الشرطة بقيت ، لكن هل بقي الانسان العراقي نفسه ، واذا كان الوصي لا زال ، أفلا نستطيع التحايل عليه ؟ ، ألا تتبدل طريقتنا في التعامل ؟

في مرة قرأت قصة حدثها الرئيسي حقيقي ، لكاتب شاب ، تتحدث عن احد الرعاة سرق ابنة صاحب الغنم ، وفي الطريق قتلها .

لقد جرد هذا الكاتب الحدث من كل أوصافه ، وعامله

كحدث غريب يستحق النقل بسهولة ، وهذا هو التسيب الادبي الحقيقي : ان الراعي الذي لا يملك شيئاً . بل الذي لا يفكر بالملكية أمام السيد ، ولننتبه ، وليس امام الاقطاعي ، فوجىء تماماً بفعله ، ومن الجهة الأخرى بملكيته المصادفة ، فحاول التخلص منها ، انه لم يعاملها كملكية قانونية يمكنه ان يرجعها قلنا انه لم يحتمل الامتلاك ، ومرة ثانية لم يقدر على الاحتفاظ بها ، اذن افناها ، تركها بالتعبير الطبقي .

ان هذه القصة نجدها ضمن مجموعة قصص قصيرة اسمها « وجوه من رحلة التعب » ، واذ عرفنا ان كاتبها يعيش ضمن ضجة جيل الستينات ، فسنرى الى اي حافة يوصل الكاتب العراقي « الجديد » نفسه . ان اية حادثة تكتسب قيمتها في الأدب العصري ، من خلالها توجه الكاتب اليها شخصيا ، ومن خلال وضعها وجهاً لوجه امام « البطل » وامام كل المواصفات ، سيما ولا زال « النموذج » هو الحاكم في أدبنا ، اي التخلف .

لقد رثى ذلك الكاتب بطله رثاء « يونانياً » خارقاً ، ولكن بعد موته ، أي بعد تحوله الى جثة ، وهنا نجرد الرثاء من « يونانيته » ونراقبه وهو يسقط ، اين يا ترى سنجده ؟ انني اجهل ، ولكن اي قاريء سيكمل افكاري حول ذلك .

أترون كيف يتحدث كاتب عن غير طبقته ؟ انه لا يكلف

حتى تبديل لونه ، وهو يتأسف على موت راعٍ ، انني لم احتمل صورة الموت الذي قدم لي بعد مرور الجنازة .

ان ذلك « طيبة » لكن اي نوع من الطيبة ؟ سنكف عن هذه الطيبة نهائياً ، لانه لم تعد لها مناسبة الى هذا الوقت من موضوعنا .

حين قرأ لينين « العنبر ٦ » لتشيكوف ، قال انه يعجب من أي قاريء لا يهرب من غرفته بعد الانتهاء من قراءتها .

وليس كل أدب ، لابد أن يتحدث عن العمال حتى يعجبهم انهم ليسوا مغلقين وليس لهم مشاريع ، ولكنهم يحتاجون الى قناعات ، مع وضع شرط الوعي . وفي بلدنا لا يمكن ان تكون احكامهم صحيحة حول الأدب ، الاختفاء شرط الوعي ، وهذا لا يبرر التدليس عليهم .

ان أي محاولة لاستقصاء مثل هذه الوضعية ، تحتاج الى نقد واسع للأدب من زاوية اجتماعية ، بعد ارساء قواعد نقد علمي يستوعب الطبقات العراقية ، ومدى وعيها الفني وذوقها الجمالي ، وهذه تفصيلات تتم مناقشتها حتماً فيما بعد .

ان التطور الذي طرأ على الرواية الأوربية في تخويل النموذج بكافة الأدوار والكلمات انما بدأ قبل ذلك في المجتمع ، أي في بداية التطور الصناعي ، وحتى سحب الثقة عن النموذج

في الرواية الذي بدأه « جيد » في « المزيفون » ، انما كان تحت نفس المنطلقات التي اختلفت معطياتها فيما بعد تبعاً للتطور الذي حصل في المجتمع الصناعي ، وللكمية التي مارس فيها ذلك المجتمع تأثيراته ، على الدين والفلسفة .

ان وضع الرواية الاوربية اليوم لا يضمن وضع روايتنا ولا يتبناها ، كما انه لا يمكن وضع قانون أوربي روائي للعالم، الا في حدود الاشكال ، أو ضمن الاقرار النفسي لتأريخنا ، الذي من الواقعي تماماً وصفه في أطار أمكانات الصيرورة .

ان قصصنا تؤمن بالنموذج ـ جميع الشخصيات ملحقة بالبطل ـ ، وتؤمن بنفس الوقت بشكل لا يحتمل النموذج . من هذه الزاوية ستدخل القصة العراقية الى أزمتها « التي هي ازمة النثر » وازمة الثقافة ، اذا قبلنا بكلمة أزمة مؤقتاً ، في وصف ما يكتب للتفاهم .

ان النموذج يوضح « غيرة » الكاتب من بطله فهو ، اي النموذج ، يحمل ذاتين ، ذاته هو وجزءاً من « ذات » الكاتب وهذه القسمة الاجتماعية نجدها مثلاً في المسرح العراقي ، اذ ان معظم المخرجين والممثلين لا يودون التعامل مع تشيكوف ، لانه ليس لديه نماذج ، فالممثل يريد ان يكون « بطلاً » والمخرج يريد تخريج أبطال ، وهي مهمة سهلة في حالته .

لننظر الى مسألة البطل الواحد في القصة العراقية ،والحاق كل الحوادث به ، وارهاقه بها ، ماذا تعني من الزاوية التي تنظر بها الآن للأمر ؟

ان الانفراد « بواحد » سهل جداً ، وادارته تكون اسهل خاصة على الأوراق .

ه ه ه

مذاق الفاكهة

داخل الغرفة المطلة على النهر كانا يجلسان، وبرغم ان الرجل يستقبل الهواء الذي يسترسل من باب الشرفة الواسعة امامه، فانه قام لمفتاح المروحة الكهربائية، ولم يجلس من جديد حتى رآها تتحرك فوقه بخفة، كانت في وسط سقف الغرفة. أرخى رأسه فوق صدره، وظهره منحنٍ قليلاً، ولا صوت هناك غير صراخ الصبية ينبعث من الخارج وهم يلعبون، « يترجرج الفضاء جهة الامام، وينساب ضوء الشمس في لمعان فاتر، يبدو متجعداً وهو يسقط على الأرض، ويتحرك صاعداً الى الداخل كلما نزلت الشمس أكثر »، وعندما التفت اليها، وجدها تنظر اليه في تأمل وألفة. دفع ظهره للخلف، وتقدمت زوجته الى باب الشرفة، اما هو فاستمر ينظر اليها باسترخاء، وللارض

التي تقوم عليها قوائم الطاولة ، « لها نظرات جميلة لا تفهم ، ومن المؤلم جداً الا يستطاع فهمها » ، وقفت اخيراً تشرف على الاسفل ، قال « اخشى ان تصيبك الشمس » ، التفتت اليه في فرح : « تعـال انظر اليهم » ، لم يرد التحرك اول الامـر ، يرى تناسق جسدها من الخلف ، رغم انها ترتدي ثوباً بيتياً فضفاضاً وملوناً ، وهواء خفيف يلاعبه ، الحت عليه وهي تلتفت نحوه ، يشتاق اليها اكثر . توقف قربها ، والصقت ظهرها الى ذراعه ، تتكىء عليه « يعلم انها تنظر اليه بعينيها الواسعتين ، يعلم ان شفتيها تزدحم بالدم ، يعلم ان لها نهدين بمقياس كفيه» ويرى الاطفال على الشاطيء ، كانوا يتصايحون في اللعب ،قالت: « من الصعب مشاهدة مثل هذا المنظر في ايّ مكان آخر » ، يتطلع بذهول ، يشعر بانه يندفع مع كتلة المياه وفترة الغروب ورائحة الغرين التي تملأ انفاسه . . الحياة لا تخلو من المصاعب والآلام كثيرة ، قال لها :

« نعم . . نعم » . يعود لمكانه من جديد ، ويبدأ يخط باصبعه شكلاً متعرجاً فوق خشب الطاولة .

ـ ما هو الوقت الآن ؟

لم يكن يدرك هذا فيما سبق ، لا يفكر بالأمر طيلة الفترة السابقة ولا يريد تفهمه ، وحين بدأ يسمح لنفسه في التفكير ،

يداريها بأن لابد وتتعدل الامور .

ـ سألتك عن الوقت .

ـ لا أدري .

لم ينفع ذلك . والحقيقة انهم اناس طيبون ، وهو (ابو حسين) يستطيع التحرك قربهم كما يشتهي ، يجـدهم كأشياء مرتبة انيقة ، يضطر عندما ينظر اليهم بتمعن ، ويتابع تحركاتهم لان ينحرف في جلسته ، ولا ينظر تجاه الوجوه ، هكذا تتسلل اليه في إندفاعة شبقة فكرته عنهم ، يعجز في دفعها عنه ، انه يفكر ـ كهذه اللحظات ، بحاجته لمسيرة طويلة ، لا ينتهي منها حتى يهدأ . وصحيح إنه لا يستطيع الغاء معظم حديثهم ، لكن الأمر يختلف فيما بعد ، الاستماع اليهم يعني انك احدهم . تنبه لزوجته تسأله :

ـ اليوم غير مستعجل لأن تخرج ؟

تحرك فى مكانه متحاشياً النظر اليها .

ـ هناك بعض الوقت .

دفعة اخرى من الهواء الجاف تلامس الوجه ، فينزل مقدمة فتحة قميصه اكثر ليدخل الهواء لجلد صدره وابطيه ، هل يخرج ام لا ؟ ، حين تخرج هذه المرأة من هنا ، يستطيع التفكير بوضوح .

ـ يعني ، لا شغل لك معهم الليلة .

ـ من تقصدين ؟

ـ جماعتك .

ضحك بفتور ، وقالت ايضاً :

ـ ويداومون على المجيء كلهم ؟

ـ كلهم ، لا احد يتأخر .

ـ حدثني عنهم ، انقطعت عن الحديث عنهم منذ وقت .

التفت اليها . حين يكون معهم يجد نفسه مجبراً على التحدث، يجلس معهم ، يتكلم ويضحك ، يختار اي موضوع ويتكلم ، لكنه يجد نفسه مجبراً على السكوت فجأة ، انذاك يلتفت اليه احدهم: « ابو حسين ، هل آذاك احد ؟ » ، ويقول آخر : « لاتستاهل الدنيا كل هذا الشيء » يضحكون بأسراف لأقل حركة ، يحزنون بشدة أيضاً ، وهذا يحدث فجأة حين تنتهي مادة الحديث .

ـ يعني ، لا تذهب اليهم هذه الليلة ؟

ـ لا أدري .

وجد نفسه يتركهم دون خطة مسبقة ، أدرك فجأة بفقدان القدرة على الاستمرار معهم بهذه الصورة ، يتحرك معهم في دورة المرج المعتادة ، أو الصمت المتوتر الصعب ، حتى ينتهي به

الطواف ويفطس ، استغرب الجميع فعله ، وكانوا ينظرون له بعيون ذاهلة متشككة عندما قام ، لم يقل شيئاً ، لكن الاستياء يشكل ملامح وجهه ، ووجه اليهم نظرة بوليسية ، قبل ان يتركهم في اماكنهم لايتحركون ، ولم يمنعوا انفسهم من التساؤل بصوت عال : « ابو حسين ماذا بك . . ازعجك شيء ؟ » ، وغادر المكان . انتهى لحل هذه المرة ، خفف عنه ثقلاً كان يضيق عليه التنفس ، وبكره شديد اليهم نفس الوقت ، وعرف انهم بعد قيامه ، سيلتفون حوله في الحديث ، ويقلبونه على جميع الأوجه ، زودهم بمادة حديث ضخمة ، هكذا يغتنمون فرصة غيابه . وفي البيت احتضن جسد زوجته ، انه يلهث ويخور. كان يشتاق ان يعاود اليهم من جديد .

ـ تدري ، بمقدار فرحي حين اتكلم معك .

رفع عينيه اليها في نظرة متطلعة .

ـ بماذا تريدين التكلم معي ؟ .

ـ بكل شيء ، افرح حتى اشعر بأنني غائبة عن الكون كله .

وهو لا يستطيع تجاهل تصرفاتهم بالمرة ، وهو يريد ان يستأصل قسماً من حياته ، وهو متضايق الآن ويشعر بصداع شديد داخل الرأس ، وهو لا يدري هل يستمر بالجلوس مع زوجته أم عليه مغادرة المكان .

ـ ما هو رأيك ؟

لم يجب بشيء واضافت :

ـ انت مقتنع بكلامي .

ـ نعم ، مقتنع .

ـ وتقبل نخرج سوية .

ـ أين تريدين ان نذهب ؟

ـ انت تختار المكان ، وانا موافقة .

ـ اليوم ؟

ـ ولماذا نؤجله !

سكت ، تقربت اليه حتى كاد شعر رأسها يلامس وجهه .

ـ اذا أنت لا ترتاح لهذا الشيء ، فأنا موافقة لا اخرج .

ـ لا ، بالعكس .

ـ يعني ، موافق ؟

عندما لا يجدها تنتظره أول دخوله للبيت ، وقت رجوعه متأخراً ، يشعر بالوحشة والفراغ والضيق مدة صعوده الدرجات للاعلى ، والوصول للغرفة حيث يجدها غارقة في النوم ، ويميل ليمس الشفتين ، كأنما يفعل ذلك ليجرب مذاقها ، وفيما بعد يعانقها لدرجة أن يبكي ، ويقضي الليل بعد ذلك ممدداً في فراشه ، وهي قربه ، عندما يلتفت اليها بين وقت وآخر ، يلمح فوق

شفتيها نفس الابتسامة قبل ان تعـاود النوم ، بقية فرح ظل عالقاً ، تتحدد النهاية بالنسبة له تلك اللحظة وراء كل نظرة يسلطها فوق الوجه « تتحدد النهاية وراء كل نظرة يسلطها فوق وجـوههم وهو يستمع » ، وبعد ذلك يحـدق في فراغ الغرفة النصف معتم ، ويتابع الحشرات الطائرة الصغيرة المحمومة حول مصباح ملون صغير في الزاوية . وقالت ، تتكاف الابتسـامة العالقة فوق شفتيها :

ـ ما رأيك ، ندعه لوقت آخر .

ـ ولماذا ! دعينا نجد مكاناً نرتاح فيه .

ـ يعني ، ليس عندك أيّ مانع .

ـ أبداً .

هل يفقدونه حين يمتنع هذا اليوم عن الذهاب اليهم ، لكن من المحتمل جداً ان لا ينتبه الى عدم وجوده أحد ، واي تغيير لن يحصل بعد قيامه من قربهم .

ـ أرتدي ملابسي وأرجع لك .

ـ انت مستعجلة ؟

ـ لا ، نكمل الان كل شيء افضل .

ـ لماذا التسرع ، لا عمل لي اليوم .

ـ أقول لك أفضل .

ونظرت فجأة اليه في غرابة .

ـ ماذا بك ، ابو حسين لا ادري كيف انت تتكلم !

قال وهو يفتح فمه بابتسامة صغيرة :

ـ كلامي واضح جداً .

ـ لا ، انت وضعك حين تتكلم يختلف ، لا ادري كيف يصبح وجهك ، يتغير ، ينتفخ او يحمر ، واضح انك غير مرتاح .

ـ هذا مجرد تصور .

ـ وضعك انت . .

صمتت لحظة ، وقد ازدادت نظرة الاستغراب في عينيها وضوحاً .

ـ هل لاحظت ذلك في جوابك الآن ، حالاً .

ـ لا أفهم شيئاً من كل هذا .

ـ نبرة صوتك وانت تتكلم ، عيناك الواضح فيها الانتفاخ لا ادري ، يمكن انا اتصور .

ضحك بفتور ، وكان يحرك رأسه ، قالت ووجهها يأخذ ملامح حادة تقترب من القساوة .

ـ ابو حسين ، اذا لم تكن عندك رغبة ، نأجل النزول .

وأشار لها ان تغير الملابس ، وقفت أول الأمر أمامه دون

حركة ، عيناها في لهفة اليه ، وخرجت من الغرفة فرحة مسرعة .
انتبه لصوت المروحة تدور فوق رأسه . كان لون الشمس باهتاً
وهي تغيب « باب الشرفة ما يزال مفتوحاً » ، يستمر الهواء
بملاعبة وجهه ، فيرفع كلتا يديه ليبخر اللزوجة تحت أبطيه .
تنفس بعمق كمن يخرج بعد غطس طويل في الماء . ويهدل جفنيه
وينظر خارج الشرفة ، « ينطلق طائر ليلي مخترقاً الفضاءالرمادي
المواجه ، اختفى اولاً ، ثم لم يعد هنـاك صوت » ان زوجتـه
موجودة ، يحس بحركة كعبيّ حذائها متوجهة للغرفة من الخارج .
وعندما وقفت امامه ، كانت متهيئة للخروج ، ثوبها الذي ترتديه ،
طريقة تصفيف الشعر الملتف للأعلى ، مشيتهـا الأنيقة التي
تتحرك بها وقت تخرج ، وعندمـا تحرك شعر بحاجته للهدوء
قبل كل شيء ، ولم يستطع ألمـه ان يفقـده الرغبة في الوقوف
بمفرده امـام الشرفة والتطلع للخارج وشم رائحة الغرين ،
أدرك انه لن يفعل ذلك عندما تقف قربه . سلك امامهاالطريق
المؤدية للسلم عبر باب الغرفة . . أبو حسين اين انت ذاهب ، ماذا
تبقى لك بهذه الدنيا ، لا يذكرك الآن احد ، بالتأكيد انهم الآن
مرتاحون جداً ، يمدون أرجلهم امامهم بنشوة وأنت وحدك مرهق ،
وانت ترهق نفسك كثيراً ، يقولون لا تكون الحياة محتملة وسائغة
الطعم ، الا بالشكل الذي يمارسونه . يضم كفها الطرية داخل

قبضة يده ، يضغط عليها ضغطاً خفيفاً بين آونة واخرى ، كأنه يريد اكتشاف مدى ليونة الاصابع . وعندما بدأ ينزل جفلت زوجته مرتاعة وهي تنظر اليه ، أحس بيدها صلبة ومتوترة ، وهي تحاول تخليصها من قبضته حتى اذا ضغط عليها اكثر ، تندفع خلفه مطاوعة ، وينساب السلم تحت وقع قدميه ، « كان السكون في الأسفل يضج بحركة وقعُ الارجل المتسارعة فوق الدرجات » وقبل ان يستدير مع انحرافة السلم توقف في الساحة المربعة الضيقة ، كان صدره يعب بأنفاس قوية ، قصيرة ، سريعة ، وهي الى جانبه شاحبة الوجه ، قالت :

ـ ابو حسين ، ما الذي جرى لك !

لاحظ شحوبها لا يخلو من ذهول ، قالت ايضاً :

ـ انت قلت لي ليس عندك اي شغل .

ـ هذا صحيح .

لم تكن درجات السلم التي امامها يحتاج قطعها لوقت طويل ، لكنها اطول من التي خلفها ، وحين اندفع ينزل ، استقر كفها داخل قبضته من جديد ، كأنه جمع قوته وهو ينحدر الى الأسفل ، شعر بقدمه لاتثبت وهو يندفع بهذه القوة ، شعر انها تحاول تخليص نفسها منه ، وتجهد باليد الأخرى ان تثبت نفسها بمسك الجدار الأملس من الجهة الثانية ، وتفشل ، كانت وهي

تفعل ذلك تفتح فمها بذعر ، لكن لم تخرج صرخة ، حتى اذا ما اقترب من الاسفل ، بدأ يرى اشكالاً غير مفهومة خلال الظلمة المتسلطة في الاسفل ، وشعر بقدمه تفلت تماماً ، تصرخ آنذاك وهي تفقد توازنها ايضاً ، انه فقد كفها وتختلط ضربات وقع الأرجل وتزداد حدة ، يشعر بعـــد ذلك برأسه يصطدم بالأرض ، تطاير في عينيه شرر النار ، لكنه لم يفقد وعيه ، يداه ممددتان الى جانبيه ، يعجز في رفعهما ، محاولاً أكثر من مرة ، كذلك رأسه ، انها ثقيلة ، ظلمة قاسية من الغشـاوة مستقرة امام عينيه ، ملأت أنفاسه رائحة الدم بسخونته ، يلامس الوجه ، ويسمع غير بعيد عنه صوت أنين طويل خافت متواصل . يعجز ان يتكلم ، يعجز ان يتحرك ، كل شيء مستحيل ، كل شيء صامت ، لكنهم الآن يتكلمون ، لا أحد ينتبه لغيابه ، اين يقوم الآن .. انه يتألم .

ه ه ه

جلسة غير سرية

داخل الغرفة المتواضعة ، كان (محمد) ممدداً تحت غطائه ، يحاول ان يرفع اعلى جسده فوق الوسادة ، وبجانبه صديقي (عامر) يقول له بأنه سيشفى قريباً ، وليس هناك مبرر لأن يقلق ، لكن رائحة الادوية المنتشرة في المكان ، وشكل محمد نفسه ، جعلني أفكر بان نهاية محزنة تنتظره ، فهل يبقى بهذا الشكل الى ان ينتهي .

رأيت (عامر) يميل اليّ ويهمس بصوت لا يمكن ان يسمعه سوانا :

ـ تريد ان تخرج ؟

ـ لننتظر قليلاً .

ـ اذا كنت تريد ، لا مانع .

ـ لم يمض الا زمن قصير على مجيئنا .

ـ ظننت انك متكدر .

وعندما سكت عامر ، سحب نفسه الى جانب المريض على الفور ، محمد جف دم وجهه ، وسمعت (العجوز) يقول بصوت متمهل :

ـ ربما غلى الماء ، سوف اتيك به .

قال محمد :

ـ لا أريده .

تنبهت باني تركت للعجوز ظهري ، وكان يجلس جوار الحائط على يميني ، انحرفت نحوه قليلاً ، فطالعتني جلدة رأسه الملساء ـ لقد نزع عنه غطاءه الأبيض القطني ، وهي تلمع تحت ضوء المصباح الضعيف في اعلى السقف ، وهذان الخدان الغائران داخل الفم ، عيناه الشيء الصافي في مجموع وجهه ، اطبقهما قليلاً ، انه متعب جداً ، تساءلت « كيف يعيش مثل هذا الشخص الهرم ؟ » .

ابتسم وهو يمسح وجهه بكفيه « في مثل هذا العمر ينتظر غيره الموت ممدداً في فراشه ، الشيخوخة » ، قال وهو يثبت بصره نحوي :

ـ سمعته ؟ . . يرفض الماء الساخن .

فكرت ان اسأله « كيف يحتفظ بحيوية التماع عينيه ، ربما بقوتها ايضاً » ، وأنا الآن اضع نظارة طبية ، وعيناي طيلة الوقت حمراوان ، التفت الى مهد ، وكان صوت انينه يرتفع ، لم اميز شيئاً في وجهه غير ظلال وانعكاسات مشوهة ، تزيد من منظر تقلصه حين يتألم بصوت ، اعلم انه يجهد لجعل الجلسة اقل حدة ، ولمح خطف ضيـاء داخل الغرفة ، لاحت خلاله الوجوه بغتة اكثر شحوباً من ذي قبل ، بعدها يهدر محـــرك سيارة قريب ويتلاشى .

ـ لم نعد نراك ؟

قال مهد ذلك وهو يحرك عنقه للجهة الأخرى ، عجبت اني عجزت لأجابته ، وجدت ـ في تلك اللحظة ، جميع الأشياء التي تقال لمريض مثله غير مجدية ، كما انها نوع من الحديث الذي لامبرر له . لم يعد عليّ سؤاله .

رأيت عيني العجوز غير مستقرتين حين اعدت النظر اليه ، لا فوق الأرض ولا على الجدران ، وكانت الغرفة ضيقة ، انما توقفتْ اخيراً عندما وجدني انظر اليه باهتمام ، تقرب قليلاً الي ربما مرض ابنه يكون نهايته . سألني :

ـ هل ذهبت الى استامبول ؟

ـ لا .

ـ ولا مرة ؟!

ـ نعم .

ـ بالتأكيد انك تشتاق للذهاب اليها .

اما البريق الذي يطلي عينيه ، فقد تحول ، وهو يتكلم ، لحزن صريح يغلفهما ، تم ذلك ببطء ووصل نهايته حين سكت ، هزة السكوت بعد فترة سكوت قصيرة ، وقال :

ـ لكني لم افلح .

قلت له : ـ المعوقات كثيرة .

ـ يتم الفشل دائماً بهذا الشكل .

تمنيت سكوته حين اختلست نظرة لمحمد ، عيناه فيهما جحوظ بارز وهو ينظر باتجاهنا ، وقد رفع رأسه قليلاً في محاولة لم تلبث ان تفشل ، نحن في خط مستقيم يمتد من رأس سريره ، عامر بجانبه ، انا اجيء بعده ، ويتبعني العجوز ، تفحصنا جيداً ، انزل رأسه بعد ذلك ، وهو يتنفس بجهد ، عندما كان ينظر شعرت بالكلمات ترتعش في أعماقه ، يعجز عن التصريح بها . في تطلع محمد لم يكن الالم وحده يؤلمه ـ رأيته يرخي اجفانه ويضغط على شفته السفلى بأسنانه ، بعد قليل نتركه ، وهو لا يرى بنا اية علة ، هؤلاء الأشخاص يجلسون قربه بكامل صحتهم ، اما هو فيبقى وحده في الوقت الذي يقترب منه الموت ، تبينت وجهه

جيداً ، كان جامداً . قال له عامر :

ـ اؤكد انك تصرع المرض .

رد محمد بغضب لايخلو من سخرية :

ـ كيف علمت ؟!

ـ عليك ان تصرعه .

ـ اسكت .. لماذا لا تسكت .

التفت عامر الي .

ـ انه لا يقتنع بالكلام الصحيح .

لم اجبه ، رأيت العجوز يفرج ساقيه قليلاً ليسند فوقهما كفيه ، بدت انحناءة ظهره بينه وهو يثبت يديه ، اخفض رأسه، صلعته تلمع تحت الضوء ، يرفع رأسه من جديد ، يبدو انه انعم باغفاءة جعلت وجهه وديعاً وهو يديره تجاهي .

ـ تعرف .. الشيء الوحيد الذي يظل حسرة عليّ ، ما هو ؟ .

انتظرته ان يجيب ، قال بعد لحظة :

ـ ان اذهب .

ـ اين ؟

ـ الى استامبول بالطبع !

ـ اذهب اذن .

- ياليت يتم ذلك .

وجدت نفسي اسأله :

- ولماذا استامبول ؟

- لأرى السلطان عبد الحميد .

- عبد الحميد !

قال العجوز :

- رأيك في ذلك ؟

نظرت الى محمد ، واجهتني نظرته المرعبة وهو يرفع رأسه قليلاً ، ثم يفشل ، شعرت ببرودة مفاجئة ، يقولون ان الذي يشعر بدنو نهايته يتذكر اجمل ايامه ، الايام الجميلة اين تكون ؟ دائماً لا شيء في اروقة العمر ، هذه هي المصيبة ، ومع ان الامر لا يرجع اليّ وحدي ، واني غير مسؤول عنه ، لكن ذلك يحتاج الى هدم ، كانوا يضعون بين الأشياء وبيننا ستائر داكنة ، حاجز ، مثل هذا الواقع ربما يكون خرافياً ، شيئاً لا يمكن ان يتصور ، وعلى هذا فان مولد الأشياء الجديدة يرجع للمسائل الصافية التي تولد هذا الانعطاف الهائل ، وهي المركز الذي يزود المعنى الحق ، ويضيف شيئاً للذاكرة تستعين به ساعة من ساعات العمر . انتبهت الى صوت العجوز :

- لم تقل لي رأيك فيه .

ـ وقت اراه الآن !

قلت ذلك بصوت خافت .

ـ الامر مهم ، ضروري اسمع رأيك .

ـ لكنه مات منذ زمن بعيد ، اعجب كيف تذكرته !

تجمع وجهه في لحظة نفور مفاجئة ، لاحظت الخطوط التي تشكل وجهه اكثر عمقاً وهي تتآلف وتقترب من بعضها ، لم يعد الحزن في عينيه وحدهما ، حتى تلك اليدين الهزيلتين لا تعرف اين ومتى تستقران ، وعندما اراد ان يتكلم رأيته يقرّب وجهه الي اكثر ، وكانت شفته السفلى ترتجف ، فكرت انه سيرد علي حول « التذكر » ، وسيقول ان هناك فرقاً بين رجل تتذكره وآخر يعيش معك ، قال :

ـ لا تصدق .

فضلت ان اسكت ، فعاود ذلك باصرار :

ـ انك تصدق بسرعة .

ـ يجوز .

ـ انه اختفى ولم يمت .

اسكت ايها العجوز ، واترك الناس لحالها ، لكنه ينظر الي بتمعن ، ولا زالت في وجهه مسحة الهدوء والرضى التي كلمني بها اخيراً ، وسرعان ما اردت ان اذكره بابنه ، ينبغي ان

اذكره به ، يمكن ان يصمت ، وبادرني بلهجة اعجاب :

ـ انك طيب جداً .

ابتسمت ، تقرب مني اكثر .

ـ انت متأكد من موته ؟

ـ هذا موضوع لا يحتاج الى مناقشة .

رأيت الحالة التي صار اليها مروعة ، احمرار عينيه واتساعهما اضطرابه كلية ، بعد ذلك ترجرجت حنجرته وهو يبتلع لعابه، وقال باصرار . صوته رق اكثر :

ـ لا يمكن .

صاح عامر فجأة باستغراب :

ـ تعني مرة واحدة ، لا يكفي !

ـ صدقني ، نفس الشيء .

ـ كيف !

قال محمد :

ـ لا فائدة .

ـ تعرض نفسك للفحص مرة واحدة ، لا يكفي !

بعد ذلك شمل المكان سكون لا يسمع خلاله غير شخير محمد وانينه ، اجفانه منتفخة ، ووجهه منبسط ، صدره يعلو ببطء يهبط بقوة ، طفرت لذهني صور لا يحدها حاجز ، حاولت اخذ

ما اريده من بين تلك الـــتراكمات ، حصرت ذهني ، الشخير يتعالى اكثر ، ما هو الشيء الذي اطلبه ؟ ، صدره يهبط بقوة ، قال العجوز :

ـ لا بد انه خلف وراءه ابناءاً ؟

ـ من هو ؟

فتح عينيه متعجباً .

ـ من اعني غير عبد الحميد !

ـ رجعنا مرة ثانية .

رأيته يبتسم ، واضح انه في حيرة من الأمر وانه يريد مني ان اكلمه ، أضفت :

ـ لا ادري .

قلت لعامر دعني واذهب وحدك ، قال يجب ان تأتي معي ، الأمر بسيط جداً ، لم يعد اصراري ينفع ، قال لي ان محمداً يسأل عنك ، اخشى ان تكون النهاية محزنة ، نهاية محمد ، وهي محزنة بلا ريب . العجوز ينظر اليك ، ارتفعت يده يشير بها مؤكداً .

ـ انا اقول عنده .

ـ قل ما شئت .

ـ ابناء اقوياء مثلة . القوى يخلف اقوياء ، اليس هـذا صحيحاً ؟

وقال ايضاً دون ان يهتم لأستماع اي جواب :

ـ تعتقد انهم لن يفعلوا شيئاً ؟

نظرت الى محمد ، ما زالت تلك العينان منتفختين ، ورأسه مطروح على الوسادة .

ـ ابناء عبد الحميد لن يسكتوا من المهانة .

ـ وما يعني ذلك ؟

ـ كيف خفي عليك ؟

ولمع بعينيه وميض ، يدل على اطمئنانه ، شيء عجيب ان يتم كل هذا التبدل بهذه السرعة ، انه يبتسم الآن .

ـ سيعيدون مجد الامة .

ـ اولاد عبد الحميد ؟

ـ ومن غيرهم !

قال عامر :

ـ تريد ان نخرج ؟

رفعت صوتي اشعاراً بالمغادرة :

ـ لا بأس ، نخرج .

مانع العجوز وهو ينظر الي بدهشة ، وكان محمد نائماً ، سألته عن السبب فقال بأن هناك وقتاً يمكن ان نتحدث به ، لم العجلة ، وأيضاً الكثير من المواضيع تشغلنا . اجلس ، كنت

اراه كطفل يلتمس من أبيه الصلب ان يأخذه معه للنزهة مثلاً ولو مرة ، قلت له :

ـ في المرة القادمة . اضاف عامر لقولي « عندما يشفى ابنـك » ، لم يوافق العجوز وهو ينـظر الي بتوسل ، قلت له « سأجلس اذن ولكن لبعض الوقت » ، انذاك هز رأسه براحة وابتسم ، جلست في مكاني نفسه ، كذلك عامر ، قال لي العجوز :

ـ السبب الرئيس هو الخيانة .

ـ الخيانة ؟

ـ جميع العالم وقف ضدها ، انها خيانة .

التفت لعامر أسأله ان يعرف الشيء الذي يتحدث عنه هذا العجوز العنيد ، فرأيته يتأمل وجه مهد ، قلت للعجوز :

ـ من هي ؟

ـ دولة العثمانيين .

ـ ما بها ؟

ـ السبب في خسارتها .. الخيانة .

قال لي عامر :

ـ عن اي شيء يتحدث ؟

ـ لا شيء .

- قال العجوز :

ـ املي الوحيد ان اذهب ، فهمت . . هل تعتقد اني قادر ان اذهب ؟

ـ هذا شأنك .

ـ فقط ارى السلطان وأرجع .

وقف مستدركا ، لاح الحرج في وجهه .

ـ أو أحد ابنائه .

ثم وهو يصعد رأسه ، بدأ كأنه يكلم نفسه :

ـ بعد ذلك اسألهم متى ينفذون الأعمال من أجل الامة .

قال عامر :

ـ ماذا يريد .

ـ ان يذهب الى استامبول .

ضحك ، فقال العجوز :

ـ لدي بعض المال ادخرته للسفرة .

هتف عامر « ادخرته ! » وينظر الى محمد .

ـ سبعة ايام تكفي للوصول ؟

ـ لا علم لي بذلك .

ـ يقولون عشرة ايام .

وقفت ، راقبني وأنا اقف ، قلت له :

ـ اذن عشرة .

قام عامر ورائي ، وسبقني وهو يخرج الى الطريق ، فكرت ان العجوز اذا لم نبتعد عنه يظل يتحدث دون تفكير بالسكوت ، وقبل ان اخرج قال لي بصوت أكثر ترجياً ان ابقى قربه اطول وقت ممكن ، قلت له :

ـ في مرة قادمة .

سكت وقد تسربت دفقة حزن لعينيه ، وينظر الي ، طلبت منه ان يدخل ، فمانع بشدة ، واصر على الوقوف في الخارج ريثما نبتعد .

o o o

الموقعة

كان يقبل بخطى حذرة ، باتجاه نهاية الجدار المشرف على الساحة ، وفي الأعلى وقفت زوجته ساكنة ، تنظر توجسه في المشية ، وثقل انحناءة نصف جذعه الاعلى يرتكز فوق ساقه المتقدمة ، وكف يده اليسرى منحرفة قليلاً ومضمومة ، يدفعها امامه بتصميم حاقد ، كما لو اطبق على شيء ، اما الأخرى فترتكز متصلبة جوار بطنه . ابتعدت المرأة الى الخلف ، وعند تراجعها استطاعت ان تلمحه في الاسفل خلال فواصل حاجز السطح الخشبي ، وكان يتقدم .

بعد ان تخطى (أنور) الباب ، اصبح في ساحة المنزل ، وتمكن من رؤية باب الغرفة ذي المصراعين مواربآ ، تمتد امامها ساحة ضيقة ، مسقوفة بأقسام مقطوعة من جذع النخيل ،

ومبلطة بحجارة مربعة عريضة لم تسلم من الخدش ، وفي الطرف الآخر بعـد ساحة التراب المرشوش غير المسقوفة بشيء تصعد العتبة الى غرفة المطبخ ، بابها مفتوح ولكن يصعب ان تميز الداخل فيلوح ذلك الجوف كمـــدخل غامض ، وفي المنتصف ـ مكان تلامس الساحتين ـ يرتفع عمود اسطواني من الخشب يسند السقف ، زين من الأعلى حيث يكون رباعياً بنقوش قديمة والبيت تتصدره ، صورة صغيرة لكف مفتوحة تتوسطها عين يقظة ولا يتخلص صاعد درجات السلم التي تبدأ بمحاذاة باب المطبخ أو النازل من رؤيتها ، ثبتت بمستوى واطيء فوق حائط السلم ، مقابل بابل الدخول .

واصبح بمقدور (انور) حين اقترب منه اكثر ، ان يرى وجهه المحمر ، تناثر فوقه العرق ، وعيناه يحاذر من أغمـاضها لئلا تفوت عليه الفرصة للترصد . . دفع يديه فجأة ، وهو يطلق صرخة حادة قصيرة ومبتورة ، كأنها تنفجر تحت تأثير ضغط قوى ، واتسعت المسافة اثر ذلك بين قدميه ، حتى لاحت ركبة ساقه المتخلفة تلتصق بالأرض ، وقد انثنت الأولى بخفة كأنهـا مستعدة للبروك ، اما يداه فقد وصلتا للجدار وهو يمدهما بصورة خاطفة ، صعدهما قليلاً بمعاناة ، وهبطتـا سوية بيسر ، تابع الحركة بشكل يمثل جندياً يسدد نصل حربة بندقيته لشخص

يقف امامه . انتبه الى زوجة صديقه تفتح باب الغرفة لتدخل واستغرب كيف لم يشعر بها وهي تنزل .

الفرح يغمر وجهه ، وكان مرهقاً ، في وجهه راحة الانسان الذي جرب كل شيء ، الالم ، الرحمة ، مواجهة الموت ، ثم استطاع التغلب على ذلك والتخلص منه ، فاسترخت ملامح وجهه باطمئنان ، ولا يلمح فيه غير بقايا من التقلص المختلج لتلك المجابهة . نظر صديقه اليه عندما اراد ان يرجع ، كأنما لم يتوقع رؤيته قربه ، وفتح عينيه بدهشة .

ـ انت هنا ؟ !

ـ جئت قبل فترة قصيرة .

تراجع من جديد قليلاً وتوقف ، التفت للخلف ، مركزاً نظرته لأسفل الجدار وقال لأنور :

ـ هل هناك من احد غيره ؟

ـ لم تتهيأ لتخرج .. لماذا لا تكف ؟

ـ حدث الامر امامك ، ان غفلت عنه .. يقتلني ، لكن هذا شيء آخر .

ـ لا .. ابداً .

وبسط يديه امامه على الفور ، فوصلت كفاه لوجه أنور تقريباً .

ـ انظر ، علق قسم من دمه ، لقد نزف كثيراً .

التي ببصره من جديد لأسفل الجدار . فقال أنور :

ـ من الأحسن ان ترتدي ملابسك .

ـ لكن اين نذهب في مثل هذا الوقت ؟

ـ نقرر عندما نخرج .

ـ اذن لن اتأخر عليك .

وبعد بضع خطوات توقف عن السير .

ـ هل اتيك بشيء ، تجلس عليه ؟ لا يمكن ان تبقى واقفاً .

ـ لا ، هكذا افضل ،

ـ سوف تتهيأ لنا فرصة التنزه قرب النهر فترة الغروب.

ـ انني انتظرك .

وأراد متابعة سيره عندما هم بذلك ، لكنه توقف ، واستدار اليه .

ـ تعرف .. لو جاء احد غيره لانتهيت منه .

واشار بذقنه لأسفل الجدار .

ـ دعنا الآن من هذه الاشياء .

ـ حدث الأمر امامك ، انت رأيته .

ـ لكن . . كيف يمكن ان اوضح لك ؟

ـ من المستحيل افلاته مني . . ما بك ؟ هل اتى بكوب

مـاء ؟ .

ـ لا ، جفت شفتاي فقط .

ـ سآتي لك بالماء .

وأوقفه انور بممانعة .

ـ لا احتاجه .

ـ بالتأكيد انها تؤلمك . . اذا اردت شيئاً ، قل لي .

ـ انه أمر بسيط .

ـ عندما كنت في الجيش ، ترى المرض يخشاني .

وتوقف ، كان ينظر لأنور بعينين متفحصتين .

ـ كنت صغيراً ذلك الوقت ، ويندر ان يقف اي عدو.. امامي بصورة خاصة ، الذين كانوا معي يعرفون ذلك جيداً .

ـ الامر يختلف تماماً عن المعركة .

ـ أينما يرصدك العدو ، وتقف مع الموت وجهاً لوجه ، يحصل التشابه . . وكان لا بد لي من قتله .

ـ اعرف ، انت في البيت ، وليس في ساحة قتال .

ولوّن وجهه سخط حاد .

ـ هذا لا يغير شيئاً .

ـ لا أفهم ابداً ، وقوفك هنا لا ينفع بالمرة .

تقرب اليه حتى واجهه تماماً ، ومن حركة بديه التي بدأت

ترافق كلامه ، محاولاً ان يقرب كلامه اكثر ، وصوته المنخفض كأنه يسرّ بشيء ، بدا أنه يحاول اقناعه ، وأنور ينظر اليه ..

ـ لا يحتاج الأمر الا الى تثبيت للقدمين ، هذا الشيء الاول، وفيما بعد انظر بشراسة في عينيه ، وتصيب عدوك الرهبة بالتأكيد .

ـ كف عن هذا الحديث ارجوك .

ـ لا بد من ذلك لتكون الفائز .

ودفع رأسه للأمـام ، وعيناه تنظران الى شفتي أنور في دهشة . اخرج أنور منديله في الحـال ، وضعه فوق شفتيه ، وحين رفعه وجد بقعاً من الدم صغيرة ومنتشرة ، واخفاه .

ـ يمكن ان تستعمل نوعاً ينفع من الدهون .

ـ اظنه لا يسبب ايّ خطر .

ـ من الضروري التفكير في العلاج ، انهما مشققتان ، وهو ينز من شفتيك .

ـ اني بخير .. انت تنسى امـر خروجنا بسهولة !

سكت لحظة ، ودون ان ينظر الى وجه انور قال :

ـ تأكد من الأمر ، اذا سألت يخبرونك حتما .

ـ ما الذي اسأل عنه ؟

ـ عندما كنت في الجيش !

ـ من الأفضل تأجيل الموضوع الآن .

ـ انت لا تريد ان تعرف .

تعجب أنور لصرخته ، وقد شعر بالفزع وهو يرى عينيه الزائغتين موجهتين اليه .

ـ اسمع .. انت تسخر مني ، لا تنكر .

ـ ولماذا أسخر ؟ ، هل هناك سبب ؟

شاهد الأعداء كثيراً ، يتقدمون بحرابهم ، وكانت المسافة قصيرة . انه ألف القتال ، ولم يرتهب من احد مرة ، لا يحتاج الا ان يلوي جذعه بخفة نحو اي منهم ليصل اليه ، بعد تثبيت دقيق للقدمين ، هذه القوة الرهيبة التي يمتلكها وهو يقاتل ، ونادراً ما يفلت منه المقابل ، ذلك يهيجه ، ويجعله يلتفت اليه برعب ، ليغرس حربة بندقيته كلها في الجسم ، وعندما ينتزعها ، يكون قسم من الدم النازف قد علق بكفيه ، فيتفحصها انذاك ببهجة . يحقد على الأعداء ويمقتهم وانور هذا يسخر منه ، تطلع اليه في غيظ .

ـ وتشك في ما حدثتك به ايضاً ؟

ـ فقط ، اقول ، هذا غير ضروري هنا .

ـ تعرف ، انني احتفظ بميدالية ، صافحني القائد بنفسه ، واعطاها لي ، اذا اردت التأكد فتعال معي للغرفة ، سترى انني لا أكذب .

ـ في وقت آخر ، عليك أن ترتدي ملابسك الآن .

ـ اذن سوف اجيء بها اليك .

ـ مرة ثانية ، متى ترتدي الملابس ؟

ـ سترى اني اسرع منك في هذا .

ـ تأخرنا كثيراً .

ـ اريد ان اقول لك شيئاً .. لماذا لا نبرهن ؟

صمت أنور لحظة ، وهو ينظر اليه في عدم فهم .

ـ كيف ؟

ـ يكون الجندي انا ، ودافع انت عن نفسك .

ـ ليس لهذا معنى ، اذا كنت تمانع في الخروج . فقل لي أفضل .

ـ لن نتأخر كثيراً ، تأكد بنفسك .

ـ لا أدري لماذا هذا كله .

ورآه انور يتلفت حوله ، وقد انحدر الظل الى فجوات وجهه .

ـ سأتي بعصا غليظة .

وتابع فى لهجة اكثر فرحاً .

ـ واحتفظ ايضاً بمطواة في المطبخ ، رغم ان شفرتها غير طويلة ، ولكن تنفع ، يجب التأكد من ربطها جيداً في المقدمة ،

وانذاك تشبه بالضبط حربة بندقية ، عندما اكون ممسكاً بها ، دافع انت عن نفسك .

قال انور وهو يتخطى في اتجاه الحائط القريب منه ، مسنداً ظهره اليه :

ـ هل هناك سبب ؟

ـ انها في منتهى البساطة ، لا تعتقد الامر .

وأضاف بعد توقف قصير :

ـ انت تخاف !

ـ لا أريد أن تفعل هذا .

ـ انت لا تتصور الأمر ، بسيط جداً .

ـ اعني فقط ، لا فائدة فيه ، ثم انه خطر .

وتوجه الى المطبخ ، قطع المسافة القصيرة بخطى واسعة وسريعة ، وفي الداخل لم يغب اكثر من دقيقتين ، وبعدها رآه أنور يمسك بعصا غليظة ، يلامس طرفها الآخر الارض ، وفي اليد الأخرى يحتفظ بالمطواة .

ـ لاتخلو العملية من خطورة ، لماذا لا ترجعها .

ـ الأمر في غاية البساطة . . احتاج الآن لمنديل .

ـ اخرج المنديل من جيبه وأعطاه له ، وقبل ان يستعمله توقف متفحصاً بقع الدم الصغيرة الجافة المنتشرة فوقه ، ونظر

الى شفتي انور . امسك طرف العصا بيد ، والآخر غرسه في الأرض الترابية وسط الساحة ، ووضع مقبض المطواة غير بعيد عن حافة العصا ، بشكل يزيد من طولها ، فيلمع النصل وهو يمتد في الفراغ ، ويبدأ في شدها ، وخلال ذلك ، احمر وجهه ، واخرج تنفسه صوتاً ، كضربة وحيدة منفردة على وتر ، سأله فجأة :

- توقف الدم ؟

رفع انور يده حتى لامست شفتيه ، وقال :

- نعم ، توقف .. يعني انت تفعل هذا بجد ..؟

- لا يحتاج الامر ان تقلق ، سترى .

- بدأت لا احتمل .

- لا ضرر في تأخرنا قليلاً .

وعندما انتهى ، وقف ينظر للنصل المثبت باعجاب .

- انها جيدة الآن .. لاحظ كيف ربطتهما .

- نعم ، وهي متقنة .

- تريد البدء هنا ؟

- فكر في خطورتها ، الافضل ابعاد هذه الآلة .

- من المستحسن لكلينا الصعود للسطح .. ما هو رأيك؟ المسافة اوسع ، ثم لا ندع احداً يشرف علينا .

وأشار بذقنه ناحية باب الغرفة حيث كانت زوجته بداخلها .

ـ اصعد انت امامي .

واشار بيده الى انور في رجاء ليسبقه . وفي الاعلى خلفت الشمس نوراً رمادياً يأخذ بالعتمة فوق الاسطح المنبسطة الواطئة ، التي يفصلها قطع متهالكة من التنك الصدىء أو كسرات من الطابوق مرصوفة باهمال ، والعصا بين يديه بوضع يكون النصل فيه مدفوعاً للامام ، وكانت ساحة البيت في الاسفل . ثبت قبضة يده المتقدمة جيداً ، وهو يتحسسها برهة بين يديه ..

صاح به : (لنر الان .. هل نبدأ ؟)

وقال انور : (ما فائدة هذا كله !)

ـ لا عليك .. دافع فقط عن نفسك .

وسمعه يضحك برشاقة ، ويبدو انه في متعة كاملة ، وعيناه تحدقان اليه في رغبة وشوق .

وقف انور متحفزاً لأقل حركة يمكن ان تصدر منه ، وقد رآه يحني رأسه ، ويتقدم بأمالة قليلة في اعلى جذعه ، بخطى واثقة ، لم يتخلص منه احد ، عندما يريد انهاء المقابل .. لا يحتاج الى غير المواجهة ، هذه القوة الرهيبة التي يمتلكها في القتال . تراجع انور للوراء قليلاً في خفة وحذر ، ينقل

بصره بين وجهه ورأس المطواة المدبب ، يندفع للامام في ثقة ، يقدم احدى يديه وهي تمسك بالعصا ، اما الاخرى فتضغط على نهايتها جوار بطنه بوضع مألوف ، وحين هجم عليه لم يكتف انور بتخليص نفسه فقط ، وانما ابعده عندما اخطأ بدفعة قوية من يده فوق ظهره ، فتعثر وهو يندفع بسرعة للأمام ، واوشك على الاصدام بالحاجز الخشبي المشرف على الساحة ، وكانت الظلال داكنة في الاسفل ، توجه اليه من جديد ، والغضب ظاهر في انحرافة فمه ، وفي الابتسامة الخفيفة التي تطوف في وجهه . اصبح واضحاً انه يمارس متعة كاملة في فعله كشخص مدمن . ما زال ينظر اليه في شوق كل خطوة يتقدم بها ، يحرك انور جسمه برشاقة الى الجانبين أو للخلف . . وايقن امام هذه الخفة ان لم يمل بجسمه للأمام اكثر ، ويندفع نحو انور ، فسيفلت منه ، ذلك يهيجه ، ولكنه سيلتفت نحوه برعب . وكان يهمهم بكلمات غامضة ، صعب على انور تمييزها وهو ينصت ، وتحمس وهو يتقدم نحوه في غيظ ، وعندما يصل اليه يقفز ، والنصل يتقدمه ، ثم لا ينوشه ، وانور يتخلص دون صعوبة ، انحرافة بسيطة تخلصه منه ، وكان ظاهراً انه تعب بعد ذلك ، وتراخت حركته جداً .

وقف والعصا في يده ، وبعد زمن قصير جلس على الارض مستعيناً بها ، والمطواة في مكانها والجانب الآخر وضعه فوق تراب

السطح المتحجر . واحس ببقية من حرارة الشمس ما زالت فيه ، يلهث بصوت واضح . وقف انور ايضاً ، ويداه مرتخيتان ، لكنه ينظر باتجاه الاسطح ، قال له دون ان يلتفت « لنخرج الآن » ، « امامنا وقت طويل » سمعه انور يتكلم بصعوبة . . وقال ايضاً « لم ننته بعد ، امامنا متسع من الوقت ، انك تلح كثيراً » .

« أمسية الهجرة »

في ذلك الوقت المريح فكر : أنها سوف تمطر ، « تلوح السحب مثل قطعة هائلة من الصوف الداكن اللون ، والشمس محتجبة » . وجميع الزملاء يغادرون أيضاً مكتب العمل ، مسرعون . توقف في طريقه للبيت أمام محل بائع فاكهة ضخم الجثة . . ستأخذ منه الكيس ، وتغسل العنب ليأكلانه سوية ، انها أول مخلوقة انثى في تاريخ الجنس البشري ، ذات جمال فخم ، عيناها واسعتان ، أما صدرها . . يا عيني ، فتمد ذراعك تلفها حول الخاصرة ، وتشدها اليك . هل يسرع بخطواته قبل ان تمطر ، وزوجته سعاد الآن تنتظره ، أم عليه الأستمرار في تحفظ وتبقى هيبته أمام الناس في الشارع ؟ ، فكر في ذلك ، لكنه لم يمنع نفسه من ابتسامة ، حدث الأمر كما لم يتوقع ، صديقه

عبد العزيز يتقدم باتجـاهه ، وأنه لم يره منذ زمن ، ومصادفة حسنة أن يتم اللقاء بهذه الصورة ، ودون ميعاد سابق ، يحول مسرعاً كيس الورق المنتفخ بالعنب لكفه الثانية ، ويسنده بمقدمة بطنه المختفية تحت سترته الجديدة ذات اللون الأزرق ، وقميصه الابيض ، عليه مصافحته بحرارة ، ويعتذر لعدم رؤيته طيلة تلك الفترة ، والشغل هو السبب ، ولو كنت تعرف الشغل في المكتب كم هو متعب يا عبد العزيز ، وعبد العزيز يقترب ، وهو لا يحول النظر عنه ، حابساً ضحكة كادت تنفلت منه وهو يقول (أهلاً) بصوت يسمعه عبد العزيز ، انه يشتاق اليه اكثر ، لم يبن عليه أي انفعال ، وهو لم يره من مدة طويلة ، وهو متأكد أنه رآه ، مع ذلك اجتازه عبد العزيز ، كأنه غير موجود . لفترة قصيرة دارت الدنيا أمام عينيه ، وذهنه توقف عن أي تفكير ، أستمر في مشيته ولم يتوقف لينظر خلفه ، استولى على وجهه ارتخاء شامـــل فيما بعد ، مجرداً من أي انفعال ، غابت عنه الدهشة ، وكان يسير بهدوء . ربما أنه لم يره ، ويهز رأسه في رفض . . أذن هل يمكنه الصبر على هذه المهانة ، لا يتذكر أن هناك أي دافع . . قال ذلك في نفسه ، ورغبته تزداد لمعرفـة السبب ، تفتيش بسيط عنه ، ويعرف كل ما يجري ، انه لا يمكن أن يهان بهذه الطريقة الفجة ، فما معنى مروره دون تحيه ؟ .

بالامكان ايقافه ، ومواجهته دون حذر . . ولو كان مثل أي شخص آخر يسير في الشارع ، لا يرتبط معه بتلك المعرفـة ، لأصبح الأمر محتملاً وعادياً ، انه صديقه .

وفي البيت ، يأتي صوت زوجته سعـاد ، يسمعه واضحاً وناعماً من داخل المطبخ :

ـ تأخرت كثيراً هذا اليوم !

« بنهاية المدخل الرحب القصير المؤدي لساحة البيت ، تقع الغرفة المخصصة للجلوس ، وحول الساحة ، تقع ثلاثة أبواب خشبية بلون أخضر ، ومدخل للسلم المؤدي للاعلى . أمام المدخل مباشرة من طرف الساحة الضيقة الآخر يقع المطبخ » ، يدخل الغرفـة ، وعندما جلس على الاريكة ، اراح ظهره للخلف ، ويدفع قدميه بجهد ، وبجانبه يضع كيس الورق المنتفخ حتى ضاعت حدوده الجانبية الحادة . . ينظر من خلال مدخل الغرفة المفتوح لجدار المدخل الرحب من الجهة المقابلة . تدخل زوجته سعاد في ردائها المنزلي النازل لقرب القدمين ، ويفكر : انه نظيف ومكوي ، وقد أرتدته الآن ، أما تصفية شعرها النازل لحدود الكتف ، فقد تمت أمام المرآة الكبيرة في الغرفة الاخرى . قالت زوجته سعاد :

ـ انتظرتك طوال تلك المدة .

ـ أبداً ، لم أتأخر .

ـ فكرت انك لن تأتي ، وقلقت .

ـ خرجت ، وكان وصولي كالمعتاد .

ـ هل تركت مكتب العمل في الموعد نفسه ؟

أجابها في برود :

ـ تماماً ، في الموعد نفسه ،

ـ واتجهت مباشرة للبيت ؟

قال :

ـ نعم .

ـ لا يمكن ، هذا غير معقول .

ـ ما هو الشئ الغير معقول ؟

قالت سعاد زوجته مندهشة :

ـ مجيئكَ فى هذا الوقت !

ويدير عنقه بجانبه فوق مقعد الاريكة .

ـ وحملت هذا الكيس معي .

تمد يديها اليه ، ناعمة وبيضاء ، (امسك بها واسحبها لقربك) سريعاً مرت الفكرة برأسه ، لكنه لم يتحرك ، وزوجته سعاد تنظر لداخل الكيس من خلال فتحته فى الأعلى ، وتتحرك خارجة ، كان الكيس بين يديها . عند عودتها يراها تجلس بجانبه .

يشعر بتعب أعصابه ، وقالت زوجته سعاد :

ـ وضعته فى وعاء ملئ بالماء .

ـ نعم ، يجب تنظيفه .

ـ ولونه الاسود جميل .

دفع برأسه للخلف ، يسنده فوق ظهر الاريكة ، ولم يتكلم . ويحس بها تنظر اليه بأستغراب ، ونظراتها لا تفارق وجهه ، قال :

ـ حدثتك كثيراً عن عبد العزيز ؟

ـ انه صديقك ..

ـ مرّ اليوم قربي ، دون ان يسلم عليّ .

قالت زوجته سعاد مندهشة :

ـ هل حدث هذا بالضبط !

ـ ولا يمكن أقناع نفسي بعدم رؤيته لي .

يقرب قدمه اليمنى اليه ، بينما تبقى الأخرى ممتدة ، ويكشف برفع طرف البنطلون عن ساقه لقرب الركبة ، وتستمر أطراف أصابعه تكاد تخدش الجلد في تحركها المتسارع فوقه ، قالت :

ـ سوف آتيك بدواء له .

ـ انه أمر بسيط ، لا يتوجب القلق عليه .

ـ اذن أرفع يدك واتركها .

حين دفع ساقه للامام ، يختفي الجزء الظاهر منها تحت طرف

البنطلون الذي نزل لقرب حذائه . وفي فترة الهدوء التي أعقبت ذلك ، يشعر بمحاولتها في التحدث اليه ، تهمّ بفتح شفتيها ، لكن لا يسمع صوتاً ، قال :

- يتوجب عليّ منعه .

- تمنعه من أي شيء ؟

قال في هدوء :

- لا تحتمل مثل تلك المهانة .

- لا أدري لماذا تشغل تفكيرك به !

لم يجب ، فاعقبت زوجته سعاد :

- سألته أن يوضح لك السبب ؟

تعمد ان يرفع صوته بالتحية ثانية ، (أهلاً) ، وعبد العزيز يمضي ، ويدق قلبه داخل صدره بسرعة ويغضب . قال :

- سأجده حتما .

ويدوّر عينيه في زوايا الغرفة ، فوق الاريكة المقابلة ، على البساط المفروش فوق البلاط ، قال :

- أختفت منفظة السجائر .

- انها قربك على المنضدة . . ثم انك ستنساه بعد راحة قصيرة .

وتضيف زوجته سعاد بعد صمت قصير .

ـ هل كنت تفكر بي ؟ .

قال في هدوء :

ـ أفكر فيك على الدوام .

عليه التصرف بحكمة ، وتلحّ عليه الامنية لرد الاعتبار الاصيل للنفس . وعليه معاملته بنفس الجفوة ، يجعل تقاطيع وجهه صلبة ، نافرة ، صارمة ، وفي مصادفة ثانية يهمله . . هل يبدو الأمر متعادلاً في هذا الحل ؟ ، وفكر : أنه لايتعدى كونه موقفاً يخلو من ذرة أمل ، وما عليه غير التشوق لملاقاته ، يجب تحطيم تلك الرأس .

تقف زوجته سعاد ، لتخرج ولم تقل كلمة ، يسمع حركتها بعد ذلك داخل المطبخ ، وفي عودتها كانت تحمل بين يديها وعاءاً من الزجاج ممتلئاً بالعنب الأسود ، « على حافة الوعاء من الخارج ، مربعات كبيرة ومربعات صغيرة ، ودوائر أيضاً ، وألوانها مختلفة » ، يسارع لتسلمه منها ، فيراها بعد ذلك تسحب المنضدة القريبة نحوه ، بعد ان أبعدت منفظة السجائر ، ويضع الوعاء .

ـ طعمه الآن لذيذ جداً .

وقال وهو يسحب قدميه ليقف :

ـ أحتاج أن انظف كفيّ .

ويرفعها أمام عينيه ، ينظر اليهما في تفحص .

تحت مياه (الحنفية) الموجودة داخل المطبخ ، تتسارع كفيه في الحركة ، كأنما يريد الانتهاء من عملية الغسل هــــذه بأسرع وقت ، وفكر : أن يغلق الفتحة الموجودة في قعر الحوض تحت صنبور الميـاه الأصفر اللون ، بلون النحـاس . يدفــع السدادة المدورة السوداء المخصصة لها ، فتغطي الفوهة تماماً ، ويرى آنذاك الماء النازل من فتحة الحنفية يتزاحم في قعر الحوض ويضج ، ويتطاير رذاذ الماء باتجاهه ، ولم يبتعد . يقرب كفه اليمنى من فوهة الصنبور الضيقة المدورة ، معترضاً سبيل المـاء النازل ، فيتراشق الماء حوله ، بضربات مفاجئة ، سريعة ، وتبتل ملابسه ، ويبتل الحائط الى الخلف ، ووجهه . وينتشر فوق الارض رذاذ كثيف ، مندفع ومتقطع ، ويمتلئ الحوض بالماء ، ويفيض من جوانبه بشكل دائم ، الماء النازل من الحنفية لم ينقطع ايضاً ، يسيل الماء النازل للارض ، نحو فتحة المجرى قرب قدميه . (سعاد) ، نادى عليها بصوت عال ومنتش ، يسمع صوت الماء النازل للحوض ، ويشعر بالماء المندفع نحو الارض فوق قدميه ، تجيء زوجته سعاد مسرعة اليه ، بوجهها الدهشة والرعب يمتزجان ، تقف في مدخل المطبخ وتنظر اليه . الفرح يغمره كلياً ، وهو يغمس كفيه ، وهو يحركهما داخل الماء في الحوض ، يهتز المـاء

وينزل منه بدفعات أضخم ، يلتفت اليها وكان يضحك . قال :

ـ انظري اليه كيف ينزل .

إبتل حـــذائيه ، وبنطلونه الازرق ، وسترته الزرقاء ، وقميصه الأبيض ، الماء يتخلل شعر رأسه ، وبين أصابع يديه . قال لها وهو يلتفت ، دون توقف حركة يديه ، أن تقترب لترى ذلك بوضوح ، قالت له :

ـ لا اقدر ان أجيء .

يترك الماء فجأة ، وبقفزة واحدة سريعة ، يستقر بجانبها . أمسك خديها بكفيه المبتلتين ، ويضغط عليهما ، ويسحبها بقوة قربه ، وبسرعة يقبلها بين عينيها وخديها وذقنها ، وكان الفرح يغمره ، يرجع مسرعاً من جديد ليضع يديه داخـــل الحوض الممتلئ بالماء ، قالت زوجته سعاد ، وكانت تهز رأسها بهزات سريعة وهي تحنيه قليلاً نحو الارض ، ليسقط ما علق بخديها من ماء .

ـ سأنتظرك في الغرفة .

أستدار نحو مكان وقوفها فيها بعد ، ولم يجدها . الفرح يغمره ، ولا يستطيع ان يمنع الضحكات المنطلقة عالياً بسرعة وصخب ، وهو يضرب بكفيه فوق الماء في تتابع ، وهو ينزلها لداخل الحوض .

« الاجنبي »

أطمأن (حميد) . ورغم أن الامر متشابه بالنسبه اليه ، سواء كان الوقت صيفاً قائضا ، أو في الشتاء ، والدنيا مظلمة وقت الظهر كما وجدها حين خرج ، وتأكد من غلق باب البيت الخشبية . وفي كل مرة لا يتمنى غير الوصول بأسرع وقت ، وهذا القلق الذي فاجئه قبل مدة قصيرة زال ، واطمأن ، وغمره الفرح ويفكر : بأن الراحة تتفجر في عروقه كما تتفجر رغبته الملحة في الوصول بشكل دائم ، أو تتفجر مثل هذه الاشعة في الأعلى ، « ينحدر ضوء الشمس المريح ، ويتوطد لكن دون حرارة ، وهذه السحب كالمصفاة ، يرشح الضوء خلالها بأشكال غير منتظمة وتفتح السحب ، وهي تفترق ، كهوفاً بمداخل زرقاء شديدة الصفاء ، وتبلط الارصفة المبللة بالرطوبة ، ويمتزج هذا الضوء

برائحة الضباب والخـارج » ، أنه نهار" طيب وواضح . أيقن حميد وهو يتقدم بأن الساعات الآتية هادئة جداً وصحية ، وتملكه احساس شبق بالاطمئنان .

ه ه ه

« تمتد المقهى من البناية الصغيرة ، يجلس بداخلها الحاج عباس وراء منضدة قديمة من النحاس ، الحاج عباس صاحب المقهى ، وقد ورثها أباً عن جد ، والعـامل خضير أمام موقد الفحم واقفا ، ومكان جلوس الحاج عباس غير بعيد عن الموقد ، وأمام قطع الفحم المشتعلة رصفت أباريق الشاي ، العامل خضير حركته نشطة عندما يصب منها في الاكواب الزجاجية الشفافة » .

والرجل هناك يجلس في نفس المكان الذي أعتاد ان يراه مهيئاً له دائما ، وحميد غير خاطئ في نظره عندما توقف عنده ، ويجعل جسده النحيل يفاجئ ، ويفكـر : بأنه يود ان يمسك بهذا الرجل ، ويشق به الأرض ، (يا ابن الكلبة) .

هل يتركه بهذا الوضع ، أم عليه ان ينتزعه منه ؟ ، من الصعب التخلي عنه ، ولم يفكـر بذلك مرة ، منذ وقت بعيد يجلس بهذه المقهى ، وفي هذا المكان ، وقد ألف ان تتم هـذه الصورة كل يوم ، والجميع لا يقتربون منه ، ليس عن كره ، لكن يعرفون مكان جلوسه بوضوح . يشم رائحة الشمس النفـاذة ،

ويشعر بحرارتها ، فتجعل رقبته التي يضغط عليها رباط العنق ندية ، ومع هذا لم يُرخه ، وقال : « يمكن انه لا يعرفه . . بعد كل هذه المدة ، ويأتي ليجلس هنا ! . . يجب ان يكشف له ، بل عليه معرفة ذلك مقدماً ، الكل يعرفون ، هذا المكان مخصص لي » .

ه ه ه

كأنه على موعد ، ويخشى عدم الوصول في الوقت اللازم ، هكذا يخرج حميد من البيت ، ويغلق وراءه الباب في همة ، وليس معنى هذا أنه يبقى في نومه ـ والحقيقة انه يستيقظ مبكراً وطوال فترة الصباح ، يمكث في الفراش « أوراق الصحف تغلف جدران الغرفة ، وفي بعض المناطق الممزقة ينكشف لون الجدار المتهالك » ، يظل مستغرقاً مع هدوء الغرفة المؤثثة ، صامتاً ، لا يتحرك الا بين فترات متباعدة ، يغير بها من وضعه ومع ذلك لا يفكر في شيء محدد ، واذ تقطع بعض الصور صفاء رأسه ، فهي لا تستمر ، وسريعاً ما تتلاشى ، ولا يمكث ما يطول غير وجوه الناس ، واحترامهم المتزايد له . . كانوا يوسعون المجال له وهو يتحرك ، فرحة أمام ذلك ، وكثيراً ما قال لنفسه أن هذا يعادل زواج امرأة مثلاً . ودائما لا يسلك الفرح وجهه أمامهم ، لكنه غير حزين .

ولا يقطع الوقت غير دقات ساعة معلقة في اعلى الجدار المواجه له « تزين الساعة المعلقة الجائط ، بصندوقها الخشبي المستطيل الداكن اللون ، وواجهتها الزجاجية تكشف الدائرة الواسعة في اعلاها ، ينطلق من منتصفها مؤشران ، والدائرة محوطة بأزقام انجليزية » ، يرفع إليها عينيه ، ويعاود الهدوء حين يعرف أن وقت مغادرته للبيت لم يحن بعد .

وعندما يتأخر قليلاً يلوم نفسه وهو ينزل من فوق السرير ويخشى اليقظة أثر ذلك ان تقلق ليلته . يتوجه للمغسلة ، بعد قطعة باحة البيت « نور الشمس يميل لناحية الغرب قليلاً » ، في آخر الباحة يقع الممر الضيق ، ويقابله حوض المغسلة في نهايته . ينظف أمام المرآة المعلقة وجهه وأسنانه ، ويحلق ما ينبت فوق ذقنه من شعر . وفي الغرفة بعد ذلك يخرج بدلته ويدخل رجليه بسرعة في تجويف سرواله الواسع ، يجب أن يراه الناس بمظهر مكتمل ، لا يختلف بشيء عن كل يوم .

المكوث طول اليوم في البيت تزهق له روحه ، حتى ولو كان مريضاً . . ويحس بالغبطة وهو يخرج « لا يوقفه في الطريق غير توصية لبائع البقالة ، أو سلام على أحد المعارف ، لم يره منذ وقت » .

تصفية الوقت تتم بكل هدوء ، كأن كل شيء معد من أجله

في المقهى ، وهناك لا يغادر مكانه قبـــل المساء ، وعند عودته يسلك نفس الطريق دائما ، ويحضر لنفسه عشاءه ، يتناوله وقت سماعه أخبار الثامنة من جهاز راديو كبير الحجم ، يضعه فوق منضدة خشبية بجانب موضع رأسه من السرير « يثبت مؤشر الراديو الضخم في موضع لا يتغير ، وحين يريد شخص ضبطه ، عليه تحريكه بحرص بالغ » . وفيما بعد يرتب ملابسه ، ويضعها داخل الخزانة في ركن الغرفة ، بجوار فتحة الباب ، ويطفئ النور ، قبل أن يتمدد تحت الغطاء .

وحميد مرتاح جداً ، لدرجة أنه يشعر بعض الأحيان ، بقلبه يكاد يطفر من داخل صدره . . لا مخلوق تفوه بشكوى منه ، ولم يقف ضده أحد . ان جميع ما يحرك هذا العالم غير معقد ، قضاء يتم ببرود كلي . . كالترابط الهادئ بين المطر والبذرة ، الانسان والله ، خروجه من البيت ووصوله المقهى .

ه ه ه

(هل يتركه بهذا الوضع ، ويرجع ثانية ، أم عليه أن ينتزعه منه ؟) ، وتقرب حميد نحوه اكثر ، ولم يختف تعجبه ، الرجل أمامه ، يجلس ، ويحتفظ بين اجفانه التي لا يكاد يفتحها الا قليلاً ، بنظرة هادئة مرتخية . يأتي كل يوم ، ولا يجد أي شخص في هذا المكان ، كيف يحصل هذا التغير المفاجئ ؟ ! ،

ما تجرأ أحد وفعل مثل عمله . ربما الرجل ينتظره ، رغم انه لم ينظر أحداً يوماً .

محتمل عندما يتقدم أكثر ، يراه ، يعتذر ، ويترك له محله ، وهو قريب منه الآن « الرجل يجلس باسترخاء ، ويدفع بساقيه أمامه » ، والناس يجلسون ، وهو واقف وسطهم ، في السابق يميز الفرح من خلال الوان العيون حين يقترب ، ونظراتهم موجهة اليه ، والآن يدار الرأس نحوه ، وبعد لحظة يعود لوضعه السابق ، تماماً كما يرون أي عابر ، نظرة فارغة ، لا تتوقف عنده .

يعرف أنه لا يجد راحته بأي موضع آخر ، وفكر بالجلوس قريباً منه ، ربما حين ينتبه اليه ، ينسحب ، هذا الرجل سوف يجدله مكاناً ، واكثر المقاعد غير مشغولة . ويرى حميد أن في عينيه انطباع جدي وقاس ، وتتضح في ملامحه الفتوة . عليه حفظ ما تعوده الناس من الاتزان . وأراد ان يطلب منه القيام لكنه تردد ، ربما ينفع الانتظار ، سيقوم بالتاكد . انهم جالسون وهو وحده ، لا أحد يدافع عنه ، ولم يلحظ من يهتم للأمر ، أو ينتبه اليه . وهم ينظرون لارجل المناضد ، والمارة ، ويلاحظ بعض الاحيان من يشرأب بعنقه ينظر بأهتمام نحو الشارع ، ثم يعاود الهدوء ، أنهم بانتظار أحد ، ولا يعلم أحد من ينتظرون . لشد ما يرغب في الصراخ بوجوههم . الرجل لم يقم . . وعليه

الوصول لنتيجة .

٥ ٥ ٥

فرح الحاج عباس حين وجده يعبر الدرجة المؤدية للداخل ، وحيد نادراً ما يجلس قربه ، وليس هذا عن كره اليه ، جـاء العامل خضير بالشاي الساخن حين جلس ، ومن خـلال لوح الزجاج القائم في الواجهة القريبة منه ، يرى الرجل جالساً . ويشرب الشاي مع العيدان الصغيرة السوداء التي تطوف فوقه ، وفي قعره ، وعندما قال : (يا أبن الكلبة) ، لم تبتعد الكلمة اكثر من موقع أذنيه ، وقال الحاج عباس :

ـ لم تأت هذا الصباح ؟

يجيء صوته خشناً ، ويلتفت حميد اليه .

ـ لا أخرج قبل الظهر .

يجد الحاج عباس يبتسم ابتسامة واضحة .

ـ نعم ، صحيح .

وبعد توقف قصير ، تختفي ابتسامته ، ويتابع :

ـ كان الضباب يتلف الصدر هذا الصباح .

ـ قضيت الوقت مستلقياً في الفراش ، ومع ذلك شعرت به .

ـ تضايقت كثيراً ، وفي الواقع لا أريد ان املك غير صحتي .

ـ ومن عنده الصحة غير عزيزة !

ـ صحيح ، اذا لم تكن موجودة فكل شيءٌ لا أهمية له . . وجهك شاحب ، هل أنت مريض ؟

ـ ابداً ، لا أشعر بشيءٌ .

وبعد ضحكة حميد القصيرة سكت كلاهما ، ومن خلف الزجاج ، كان منظر الرجل لا يتغير ، يمدد ساقيه ، (يا ابن الكلبة) ، ويسمع صوت الحاج عباس :

ـ اهلاً وسهلاً .

ـ اهلاً بكَ .

الحاج عباس يرفع يده اليمنى بخفة لصدره ، ويسعل ، يمد يده الأخرى لجيبه ، يخرج منديله الملون ، ويمرره فوق شفتيه اكثر من مرة ، ويمسحهما بقوة ، قال : ذلك الضباب اللعين . . الصدر محتاج للراحة . . انها ضرورية . . والضباب يتلف الصدر ، أشعر بألتهابه . . هل تعتقد أن عليّ مراجعة طبيب ؟

ـ أنت أعرف بالأمر .

ـ ضروري أن يفحص موطن الالم .

ـ أخبره بذلك . . وانك محتاج لمداواة .

ـ محتاج للمعالجة ، ويجب عليّ الذهاب .

رفع العامل خضير كوب الشاي الشفاف من أمامه ، وقال

له الحاج عباس ، ولم تتغير نبرة الهدوء في صوته :

ـ عليك أن تخرج في الصباح .

ـ هكذا . . تعودت .

ـ لكن من الاحسن ، وأنت تخرج .

لم يجب حميد ، ويرى يده ترتفع لصدره ، يفرشها فوقه ، ويضغط عليه بنصف قوة . فيخرج صوت سعاله خافتاً ومتواصلاً ، قال حميد :

ـ حاول أن تنساه .

ـ هذا الصباح أتعبني كثيراً . . في هذه المنطقة .

ويرفع يده اليمنى لمنتصف صدره ، وضعها فوقه برفق ، تابع :

ـ أشعر به ملتهباً .

ـ انه شيءٌ عابر ، ستشفى .

يلتفت الحاج عباس لشخص يجلس غير بعيد عنه ، بمحاذاة الجدار في الداخل ، قال له الرجل ، وكان يغمر وجهه اطمئنان كلي :

ـ قلت لك ، بقاؤك بهذا الشكل ، غير ممكن .

ومن خلف لوح الزجاج القريب اليه ، يرى نور الشمس يتقطع بين لحظة وأخرى ، « من خلال تحرك الغيوم ، كانت

الشمس تنساب من الفجوات التي لا تلبث ان تندرس » ، والرجل يجلس ، يمدد ساقيه ، كيف لا يثير أعصابه ! ، شوقه يزداد للقيام اليه ، ولم يفت الاوان بعد لأستمادة مكانه . وهو لا يشعر بالخوف من ملامحه ، قال الحاج عباس :

ـ ساوصي خضير بشاي آخر لك ، وأحسبه عليّ .

ـ لا استطيع .

ـ انت بحاجة اليه ، وجهك شاحب جداً ، هل انت مريض ؟

ـ أشعر بقليل من التعب .

ويضع حميد يديه فوق ركبتيه وتحرك مؤذناً بالقيام .

ـ لم يحن وقت العشاء بعد .

قال حميد :

ـ أريد أن اذهب .

ـ سأوصي خضير بالشاي ، وترتاح بعده ، انني متأكد .

ـ مرة ثانية .

ـ في الغد أذهب أنا لطبيب .

ـ ذلك افضل . . أقوم الآن ، وجائز ان أرجع .

ـ سأوصلك للبيت ، أظن حالتك تزداد سوءاً .

ـ انني بخير ، ها انت تراني .

٥ ٥ ٥

دار حميد ساكنة ، ولا حركة تصدر منه ، وفي داخل غرفته حين توقف ، لم يمد يده لمفتاح النور ، يعرف مدى انخفاض سقفها ، وكيف انها ضيقة ومزدحمة ، « صور عديدة داخـــل الرأس » ، وحين تعودت عيناه الظلمة ، وجد النور يتسلل من الخارج ، ينزل من خلال زجاج النافذة المطلة على الطريق ، مرتعشاً خافتاً ، فيضيء العتمة . يجلس على حافة سريره دون ان يغير ملابسه ، لا يدري كيف فكر في لحظة عابرة بأنه خجل . ويهز رأسه عدة مرات ، كان يظن أن ما يصعد لرأسه من الدم بتلك الدفقات الهائلة هي السبب ، واقتنع بعد ذلك ، ان ما يثقل رأسه ، هو أختلاط الافكار وسرعتها في الجريان ، وفكر : بالتوجه الى المغسلة ، يفتح صنبور الماء ، ويضع رأسه تحته . ويرفع ساقيه ، القى بهما فوق السرير من الجهة الثانية ، تظهر الوجوه أمامه وتختلط ، وجوه غير مكتملة الملامح ، لكنها بالتأكد ، وجه ذلك الرجل ، ووجه الحاج عباس ، وخضير ، وكذلك وجوه الجالسين في المقهى ، والوجوه المارة به في الشارع ، تختلط الوجوه حتى صارت وجهاً ضخماً بشعاً مخيفاً .

(حقل للرغبة)

فتح (ابراهيم) باب الغرفة بهدوء ، تدفق الضياء اثناء ذلك ، ووقف في مكانه « الجهة المقابلة لمدخل الغرفة امتلأت بالضوء ، ولكن العتمة لم تنكشف الا قليلاً في الجزء الآخر من الغرفة ، ويمكن مع ذلك تمييز الاشياء ، وأيضاً شكلها بجهد كبير » ، ليتنفس تنفس الرجال الآمنين ، أو ينتظر ربما يتغير الامر ، كما ينتظر الخطوط الأولى التي تنسل من الفجر ، ولا يختلف انتظاره هذا سواء كان داخل الغرف ، أو فوق الأسطح « يمتد سريره مقابل تيار الهواء الذي يبرد آخر الليل ، ولا يترك شيئاً الا ويلامسه : جرة الفخار الممتلئة للمنتصف بالماء ، تستقر في فتحة مثلثة من ركن احدى زوايا سياج السطح الخشبي ،

وغطاء امه ، ووجهها المائل للبياض ، وهي تتحرك فوق السرير الذي ادعمته من الاسفل بالواح الخشب ، تنتصب اعمدته الاربعة حولها كشواهد متقاربة ، وعلى الحبل الممتد من وسط الحاجز الخشبي المشرف على ساحة البيت فى الاسفل ، وأحد اعمدة السرير علقت الام ثوباً من قماش أسود قبل ان تنسل تحت الغطاء ، وكانت وحدها » .

سمع الفتاة تتكلم ، وكانت كلما تقلبت تنبعث حشرجة عالية من السرير ، يرخي جفنيه عندما يلتفت ، ويراها لا تزال تتمدد ، وقد علقت كلتا يديها فوق أعلى ظهر السرير ، كان وجهها بمواجهته ، لكن القدمين الصغيرتين العاريتين لا تبعدان عنه « يستقر حذاءها الملون ذو الكعب الدقيق ، وراء الكرسي ، بجوار الحائط ، ويكاد ينكفئ وهو يميل ، غير انه ارتكز على الحائط » ، وفكر ان يأتي بالكرسي ، يجلس عليه « على الكرسي القريب من السرير ، المدهون بلون يميل لصفرة داكنة ، وقاعدة للجلوس من قصب شرط بشكل خيوط متينة وطويلة ، يستقر ثوب بلون بنفسجي ، ينزل من أعلى الظهر ، ويعبر قاعدة الجلوس قليلاً ، وكانت تنزل من اعلى مكان فتحة العنق من الامام ، ربطة قصيرة وعريضة ، من نفس اللون ، فاتح » ، ينظر لوجهها من جديد ، لم تخفه العتمة الا قليلاً ، وكان بوده ان يفتح مصراع

النافذة الخشبي ، وتذكر نور الشمس ينغرز في كل مكان : فوق الخطين الابيضين المتوازنين وهما يقطعان الشارع للجهة المقابلة ، وفوق قطع القماش السميكة النازلة من اعلى واجهة المحلات على الجانبين ، وفوق الصحف اليومية والكتب المعروضة خارج (كشك) في ساحة (طلعت حرب) وكانت العيون مترقبة مضطربة متلهفة قلقة ، وطلاء شفاه النساء لين وطري كعصير الطماطم ، يثبت نظرته فوق صفحة وجهها حين اضيء اللون الاخضر ، وكان يعبر ، وهي تنقل بخطواتها غير بعيدة عنه ، ورأى جانباً من لحم ثديها ينطلق من فتحة ابط عار ، حين تهز يدها وهي تمشي ، علت ابتسامته شبقة مترددة ، كانت ترتدي ثوباً بنفسجي اللون ، وفكر : ربما تكون نفس الفتاة التي فوجىء بوجودها مرة في احدى شوارع بغداد ، حدث ذلك بعد الظهر والسماء فوقه مكشوفة ، وجدها تغطي جبهتها المائلة للبياض بخصلتين منسرحتين من شعر اسود ، وهي طوال الوقت تتطلع اليه من وراء نافذة (الباص) المجاورة لها ، وهي امامه رقيقة وناضجة ووجهها نقي من أي حقد ، انها تتلهف اليه في هدوء ، وقال في سره حين تحرك (الباص) - الذي توقف قليلاً - سوف تهبط اليه في المحطة الآتية ، انتظر حتى المساء ، وهو في وقفته ، وعندما لم تجئه قبض الحزن عليه ، وظل يغالب خيبته « اقتنع انذاك بأن يراها المرء

مرة واحدة فقط ، حتى يذكرها طيلة حياته » استدارت الفتاة حول الساحة لتدخـــل شارعاً آخر ، ووقفت تنظر الى رفوف الاحذية وراء زجاج معرض فخم ، ولم يكن اسفل ثوبها الواسع عند الركبتين ، أية ثنية . وعندما توقف كانت صفحة الزجاج المواجهة تلمع ، تفحص عينيها الجميلتين المنطبعتين فوقه ، وكانت تنظر لحذاء ملون .

سمع الفتاة تتكلم ، وحشرجة السرير ايضاً ، قال :

ـ ماذا ؟

نظرت الفتاة اليه بزاويتي عينيها .

ـ بماذا تفكر ، فيّ ؟

قال : لا افكر بشيء .

ـ اتشعر انك بخير ؟

قال : نعم ، كل ما في الامر ، اريد النور ان يدخل .

قالت : لكن المكان يليق بدونه .

ـ فعلاً ، يكون ذلك احسن .

ـ تعال نتحدث . . تقرب .

قال : اريد ان اجلس .

ـ تستطيع ان تجلس داخل الغرفة .

ـ افضل الجلوس في الخارج .

يدخل النور من فتحات النافذة على يساره ، خارج الغرفة ، والشمس تميل لناحية الغرب ، لكنه ايضاً يتسرب من فتحات النافذة وباب الشرفة امامه ،كل شيء أمام عينيه ينفصل بحواجز من الظلال . كان (ابراهيم) يثبت في مكانه ، لا يدري كيف لم يتحرك ، وكان يراها ، ما تزال تثير الرغبة - رغم كل شيء ، في ان يتحدث المرء معها ، يجلس قربها ، يسمعها حين تتكلم ، كان يرى استدارة الوجه ، وهي تسند خدها فوق ظهر السرير ، ويرى أيضاً راحة قدميها في مواجهته ، ويرى الحذاء « القت حذاءها الملون اللامع ، وصفته بهيئة معتدلة عند موقع قدميها تحت السرير ، وترفع ساقيها لتضعهما فوق ، وقبل ان يجلس جوارها ، دفع الكرسي قليلاً للوراء ، ولم يتحرك الثوب البنفسجي النازل من فوق ظهره الى تحت قاعدة الجلوس » . وحاصر خصرها بساعديه ، يديرها اليه في بطء ، وهي لا تقاوم ، طيعة ، وكان تنفسها كدفقة دم حارة تفور بوجهه ، ولأرتخاء جفنيها نقاوة غيوم الصيف ، انقادت له عندما التى بذقنه فوق كتفها الايسر ، يثبته ، ويسحبها اليه . كانت فرحة وهي تغلق عينيها بشدة ، وينضح وجهها بالعرق ، ويقطر وجهه بالعرق ، ويختلط مع عتمة الغرفة « قطرات دقيقة متجاورة ، دون مساحة فاصلة بينها ، في شكل الرذاذ المزدحم على سطح أملس » ، وحين

يفتح عينيه يرى وجهها متألقا بفرح رائق . قال لها : (نفتح الشباك قليلاً لتخف العتمة) ، قالت له : (اسكت) . تمرر يديها فوق ظهره ببطء ، وتضغط عليه بقوة ، انه يشتاق اليها اكثر ، ويسمع تنفسها ، انه ساخن ، منفرد ، منتش ، باك ، تمد يديها لشعره ، كانت عيناها مغمضتين ، وقالت (احبك) ، وقالت ايضاً (غبت عني مدة طويلة) ، وكانت لا تكاد تفتح عينيها ، وقالت متوسلة معاتبة (لماذا ؟) لكنها بعد ذلك نظرت اليه غير مصدقة ، وتوسعت حدقتا العينين ، يلوح وجهها امامه قاس ومندهش ، لكن نظرتها سريعا ما ترتخي ، وفكر : ربما كانت تفكر بغيره . اسند جبهته لكتفها وهو يدير وجهه للجهة الثانية ، كانت في بادىء الامر تطوقه ، لكن يديها تهدلت وهي تراه ينهض ، ولم يبصر بعينيها أي شيء ، انها تنظر اليه فقط ، قالت له (ما بك ؟) ، جلس على حافة السرير ، هادئاً ، ولم يتحرك ، ولم يفه بكلمة ، وكان يخفض رأسه ، وخلال ذلك مر بأصابع يديه خلال شعر رأسه اكثر من مرة . قالت له : (ما بك ؟) ، ورأى زوج الحذاء الملون اسفل السرير ، قريباً من موضع ساقيه ، جعل قدمه تستقر وراء الحذاء ، وفي حركة اهتزاز ساقه « لم تتوقف ساقة عن اهتزازها لحين قيامه » ، تدحرج الحذاء الملون حتى ارتطم بالحائط ،

وكاد ان ينكفىء لكن اسنده الحائط ، ويتجه نحو الباب ، تدفق الضياء بعد ذلك ، ويسمع حشرجة السرير ، كانت الفتاة تتحرك نحوه وهي صامتة .

الظلام فى الخارج

قبل المساء أصبح اللون رمادياً ، اما الشارع فكان مدثراً برائحة الرطوبة والبرد ، ضوء المقهى ينفذ امامها الى الخـارج عبر الواجهة الزجاجية ، وهي تحتل مكانها بين البيوت المنخفضة . في نهاية الشارع تبدأ المنطقة الخالية الا من الفضاء الممتد ، كانت ككتلة من الحجر ضخمة ومترامية ، يصلان آخر المدينة . أراد (عادل) ان يتجاهل تصرف زميله ـ يسير في خفة ويلتقط بين وقت وآخر حجارة صغيرة يقذفهـا امامه بعنف ، وقفزاته الفرحة حين يراها تبتعد اكثر ـ فواجهتهما المقهى .

قرب المدخل يجلس رجل لحيته مرسلة لأعلى صدره ، كانت بلون الحناء ، ومن ملابسه الخاصة يعرف انه رجل دين ، وجوده غريب في هذا المكان ، هكذا حدث زميله نفسه حين رآه . جلسا

متقاربين في الزاوية ، وقال زميله وهو يمد ساقيه للامام :

ـ تصور اني متعب جداً .

في اللحظة نفسها صاح عادل رافعاً يده :

ـ كيف حال الشيخ ؟

ـ بخير ، العون من عند الله .

نظر زميله ناحيته ، والتفت فيما بعد اليه باستغراب .

ـ تعرفه ؟

ـ رأيته عندما دخلت .

قال زميله ـ فقط ؟

هزّ عادل رأسه موافقاً .

احضر النادل الشاي دون ان يسألهما ، ولم يعارضانه ، كان يبتسم وهو ينظر الى وجهيهما ، قال عادل بعد فترة صمت قصيرة :

ـ تعود علينا ، احضر الشاي دون ان نطلب منه ذلك .

ـ هذا مؤكد .

صمت زميله برهة ، وتابع :

ـ اردت ان أجيء بالمظلة معي .

ـ وغيرت رأيك ؟

ـ ما تصورت ابداً انها بهذا الشكل .

ـ لن تكون ضرورية جداً .

ـ على كل ، وجودها مهم ربما تمطر .

واضاف بحماس :

ـ اللون اسود في الخارج .

ـ في هذه الحال يكون تعبنا اكثر .

ـ اشعر ان قدميّ تؤلمانني .

ومد يديه الى ساقيه ويضغط عليهما وقد لاح وجهه ممتزجاً بالراحة والألم .

ـ يجب ان تتعب ، له فائدته .

ـلا اراه بهذه الصورة . . جائز مجيئي الآن هنا يكون للمرة الاخيرة .

ـ حين تزيد من المشي ، بالطبع يرهقك التعب .

ـ تعبت ما فيه الكفاية .

ـ مدهش ! انت تدرك ذلك .

ـ هذا امر غير مضمون بالنسبة لي .

وشربا الشاي ، يلوح وجهه وهما يرشفانه مشوبا بالحمرة ، واستدار الى عادل من جديد .

ـ انها شديدة البرد .

وفتشت عيناه عن النادل ، كان يجلس قريباً منهما ، وراء

الباب ، ولوح له بيده .

ـ لماذا تترك الباب مفتوحاً ؟

نهض بسرعة من مكانه وقال :

ـ تريد ان اغلقه ؟

ـ نعم ، كيف لا تحس ببرودة الجو .

جلس النادل حينما اتم الغلق ، لكن زميله سأله :

ـ هل من اخبار جديدة . . حالة الطقس هذه الليلة ؟

ـ سمعت النشرة كاملة ، درجات الحرارة تنخفض .

ـ خبر سيء .

ـ مستحيل ان تفوتني الاخبار الجوية ، اتابعها على الدوام.

قال عادل ، بعد ان ساد الركود فجأة بينهما :

ـ من الافضل ان نجرب وسائل جديدة . . انظر كيف نتمتع بنفس طويل .

ـ ملاحظة ذكية !

ـ طبعا .

ـ انا اقول هذا .

دخلت دفعة من الهواء حين حركت الريح الباب قليلاً ، هتف زميله :

ـ الهواء بارد .

احنى عادل ظهره ، وهو يضع كلا ساعديه فوق الساقين الممتدين . كان يدخن ، وينفث انفاسا متلاحقة ، قال :

ـ ولكن لا يجوز ان تفعل ذلك ، حين تقتل نفسك تنتهي .

لم يتردد زميله غير لحظة . . لا شيء يلوح امامه الآن في الخارج ، كتله من العتمة ، لكن هنا ، في هذا المكان ، يشم رائحة الشاي الساخن .

ـ انت تصعب الامر ، انه في منتهى البساطة .

ـ لكن هذا غير صحيح !

ـ والعملية مهيئة وقتما تريد ، استطيع ان اقول لك : لا تتطلب اي جهد .

ـ لن تكون احسن حالاً . . تنتهي .

ـ على الاقل اتخلص ، لم اعـد احتمل ، وهي احدى الوسائل السهلة .

ورفع يده يطلب غلق الباب من جديد ، فلاحت عينـاه جاحظتان عندما اعتدل في جلسته . واخذ له نفساً عميقا .

ـ تعرف ان الزيادة في المشي تلين الاعصاب ، وسريعا ما تنام .

ـ تظن يحدث ذلك ، لو استعملت قدميّ ؟

قال عادل :

ـ تتهيأ لك فرصة الشخير في نومك من التعب . اسألني انا عن ذلك .

ـ لا استطيع الوصول لهذه الغاية ، لا اقدر .

ـ انتفع بها كثيرون .

ـ اعرف ، انه افادهم .

قال عادل في كثير من اللهفة :

ـ العملية واضحة ، يلزمك تشغيل قدميك .

ـ سرنا معا طويلاً ، وهذا ما يثير الضحك .

قال عادل بجدة :

ـ لا يمكن قتل نفسك .

ـ ان اتخلص من حياتي الحاضرة ، شيء انتهيت من التفكير به .

ـ اوافقك انه بسيط . . فكر به تراه نوعا من الهذيان ، لا اتصور انك تفكر بهذه الطريقة !

ـ لقد افهمتك . . حاولت جاهداً لاحصل على النوم ، وافشل كل مرة .

ـ لا يمكن يا عزيزي ، هذا خطأ .

سكت كلاهما ، تطلع اليه عادل خلسة ، وجده ينظر ساهما الى الخارج عبر قطع الزجاج المضببة في الواجهة ، كان الظلام

لا يسمح بالتوغل ، اما داخل المقهى فالنور يتوزع بكمية معتدلة ، وسأله زميله بصوت هادئ ، وهو لا يزال مستمراً بجلسته تلك ، لم يحرك غير الشفتين .

ـ اذا لم تنم ، بماذا تفكر ؟

قال عادل :

ـ لا أفكر بالمرة ، انا لا افكر .

ـ لا تريد ان تخبرني بذلك .

ـ انني انام جيداً .

ـ وتتمتع بهذا طول الليلة ؟

ـ يرهقني المشي فأرجع ، في البيت ارتمي فوق السرير وقتما أشعر اني متهالك ، واستيقظ عند الصبح ورأسي صاف .

ـ لكنك متضايق ، واضح على وجهك .

ـ بالعكس ، انت تتوهم .

ـ تريد ان تخدعني ، لا اصدقك .

شاهد عادل يدي زميله تتدليان وراء ركبتيه وهو يتقدم الى طرف المقعد بارتباك ، كانت عيناه محمرتين ، واسقط رأسه فوق صدره ولم يتكلم فيها بعد . نظر عادل للشيخ الجالس قرب المدخل فرآه لم يتحرك من مكانه ، وعندما التفت شاهد وجه زميله احمر قانيا وهو يرفعه اليه ، ثم صاح على النادل (شايا

آخر) . التفت الشيخ حيث يجلسان ، فثبت زميله النظر عليه ، كانت عيناه محتقنتين وراء اجفانه المرتخية .

نزلت يد النادل تمسح الطاولة من امامه ليضع الشاي ، وقبل مغادرته قال لزميله :

ـ ليلة الامس افضل كثيراً .

اجابه بأيمائه موافقة من رأسه ، وقال :

ـ جوها حسن ودافىء .

وقال النادل :

ـ ومشمس ، سوف نرى كيف تكون عليه في الغد . . البرودة تتزايد ، هذا واضح ، وعلى المرء ان يحتاط للأمر .

ـ انصط اليّ ، دعني اقول شيئاً .

جاءه صوت زميله هادئاً :

ـ اني استمع .

وذهب النادل مبتعداً الى مكانه .

ـ اذا كنت تريـــد ان تفعل ذلك لا اضغط عليك ، ولا يهمني الأمر .

ـ يبدو انك تعجز لتصور الأمر .

ـ ما تريد بالضبط ، اعرفه .

ـ انت طيب معي . . لماذا ترفع صوتك . تكلم بهدوء .

رفع عادل إليه نظرة مرتبكة ، وسأله :

ـ هل تريد ان نسير بعد الآن مدة اطول ؟

ـ ادركت اني لا انتفع من وراء تعليماتك . لا يمكنك ان تفرض عليّ هذا .

ـ سريعا ما تنطرح فوق فراشك بلا وعي ، فرصة نادرة .

ـ لا يجدي ذلك . . اعني نفسي .

وتابع قبل ان يفتح عادل فمه :

ـ كل ليلة اظل يقظا ، حاول ان تبقى وحدك في غرفة للصبح ، واطفأ النور بانتظار النوم ، حالة مرعبة .

ـ دعني افهمك . الأمر غريب تماماً !

ـ هل تقدر ان توضح لي الاجابة ، انا سألتك ؟

ـ لا تفكر على هذا النحو ، اكره تفكيرك بهذه الطريقة ، شيءٌ غريب .

ـ يمكنك توضيح ذلك من البداية .

ـ اعني لا أريد ان تنفذ ما تفكر به ، لا تخسر الا انت ، وحدك .

ـ اعجب ان اسمع منك هذا القول !

ـ المهم ، فهمت ما تريد لحياتك الحاضرة .

ـ العملية سهلة ، وتضع حداً .

قال عادل :

ـ اعرف انها تهدف لهذا الحد ، لا انكر .

ـ لا تصعب الامر اذن . انه في غاية السهولة .

ـ قال عادل كأنه يتوسل اليه :

ـ سترى انك تنام فوراً .

واضاف بلهجة مسرعة وحادة :

ـ افهم هذا جيداً ، فقط استمع اليّ .

ـ لماذا تتصرف بصورة تحيرني بها ، وتشوه رأيي بك ؟

قال عادل :

ـ اصرارك عجيب ! مؤكد بعد هذا ستتعود على وضعك وتقبل به .

وبعد فترة صمت قصيرة قال عادل :

ـ هل تخرج ؟

ـ انت مستعجل ؟ !

ـ لا ، دعنا نترك المكان .

ـ بمقدورنا ان نظل فترة أخرى .

ـ نحتاج الى وقت نقطع به الطريق .

ـ لكن الوقت ليس متاخراً

قام عادل وتبعه زميله ، وعندما فتح النادل لهما الباب ،

سمعاه يقول :

ـ انتبها جيداً ، ربما يصاب المرء بالبرد في مثل هـــذا الطقس .

وفي الخارج كان عليهما قطع مسافة طويلة الى داخل المدينة ، وجد عادل زميله يرفع ياقة سترته مسوراً عنقه ، ويبقى رأسه يلوح في الاعلى صغيراً وكروياً بشكل مصباح منطفئ ، بعد ذلك رآه يتركه دون كلمة الى الجانب الآخر من الشارع . هناك يقف وسط الظلام يتلفت حوله . ويثبت قدميه فوق الأرض ، ويفل ازرار بنطلونه قبل ان يقترب من الزاوية القريبة اليه ، ويفرغ ذخيرة امعائه .

يقف (أسماعيــل المخبر) غير بعيد عنه ، وحين يلفت (عادل) رأسه ، تواجهه نفس النظرة المشترخية ، وأيقن من أنه مراقب . هل تستمر عينا أسماعيل المخبر تنغرسان فوق وجهه ، وهو واقف ، أم عليه تغيير الوضع ؟ ، وتبحث عيناه فيما حوله ربما يجد مكاناً يحجز نفسه عنه ، وكان ذلك بالغ الصعوبة ، فغير رأيه « الحركة قليلة والشارع هادئ ، وأي شخص لا تخفى حركته ، ومن الجهة الامامية بعض الأبنية العالية التي يمتد ظلها باتجاهها ، والى الخلف أرض خالية تتصل بشارع آخر » ، فكر : أنه لا يلفت النظر أبداً ، وهو مثل أي شخص ينتظر على الطوار مجيء سيارة النقل . وفي نظرة جانبية أخرى اليه ، يراه يبتسم .

من المؤكد أن خطأ ما حدث ، يشعر عادل بهذا وهو واقف ، والا فالأمر مبيت ، وهو متأكد ، وان نظرته هـذه تقلقه ، وتكون احدى لعبه المنتهية في الغالب بنهاية سيئة .

أسماعيل المخبر لم يغير وقفته ، وعادل يلاحظ جيداً جهده لأن يبتسم ـ خلال لفتاته السريعة المتقاربة نحوه ، وتوشك في كل مرة أن توضح . أما تلك العينين اللتين لا يعرف أحد وقتاً تستقران فيه ، فقد كانتا ساكنتين ، وذلك ما يجعل عادل يدهش لمرآة أخيراً ، ويجعله يستمر في النظر دون التفاتة ، والغريب أيضاً ان شؤمه لم يستمر مثل كل مرة يراه فيها ، ولم يتابـــع بلعن الساعة التي أوجدت هذا الشخص على وجه الارض « ان شـكل وجهه لا يكفي ليبث الخوف ، شـكل آدمي اعتيادي ، لا تميزه غير سحنته الداكـنة المقتربة من لون الفخار ، وبياض شعر رأسه . . وهو لا يملك صدراً عريضاً يوحي بالجسارة ، أو وجهاً مخيفاً لا تقاوم متـابعة النظر اليه ، وأصل ما يخشى منه يرجع لاسمه فقط » ، وهو خلال ذلك يتحرك بغلظة ، وينقـل عينيه بين الناس بسادية ، ومـع هذا يتعامل الجميع معه باحترام زائد اينما يذهب ، ويدفع عنه الحساب انْ دخل مقهى مثلاً ، « انه الخوف والا فمن عنده سنين فائضة عن الحاجة يريد تلفها داخل غرفة ضيقة ، رطبة ، نتيجة وشاية يمكـن ان يرفعها

أسماعيل » ، وهذا الرجل يحط أمامك فجأة ، أو تستمع لخطاه خلفك . . اما أنه يخرج من جوف الأرض ، ينزل عن طريق الفضاء ، أو يترصد في منعطف ا ، فهذا ما لا يعرفه أي شخص بعد ، « يشعر به يقتني خطواته ، تظاهر بتجاهله وهو يتقدم ، وكان يحلم بالوصول للبيت قبل أن يوقفه أسماعيل ، يستمر بسرعة تزداد ، ويسمع صرخته عالية ، وعرف أن صبر أسماعيل نفذ في تلك اللحظة ، يثبت قدميه في الحال ، ولم يتابع ، ولم يأت بحركة ، لكنه يرى ظله من زاويتي عينيه يتقدم باتجاهه ، وفي أستدارته أخيراً يراه أمامه ، وبجهه تحت نور المصباح المضيء في الشارع وعيناه مسددتان اليه في توتر حاقد ، ويقلص وجهه في غضب ، يصرخ أسماعيل فيه ، ويعجز أن يجب بقول ، وهو يراه فيما بعد يتكلم في زهو ، ويتذكر أنه قال اليه أخيراً (أعفيك الآن) ، (في مرة قادمه اسلخ لك جلدك) ، ولم يكن الوقت متأخراً جداً في الليل » ، ورغم نشاطه فأنه بعض الاحيان يلعن العمل ، عمله خاصة ، يقول أن لا أحد يمارس التعب مثله ، ويتحمل يقظة الليالي ، بينما الآخرون يلفون زوجاتهم في الفراش ، لكن أسماعيل تكلم ذلك بلهجة مترددة ، أحس عادل أنه لا يتكلم بجد ، ويحب العمل ، وانه يفكر بأهميته ، وهم يعرفون قيمته والا فما معنى كل هذه الهيبة ؟ .

يتقدم أسماعيل المخبر ، كأنما يشق طريقه خلال طريق معتم ، فيحول عادل نظرته عنه ، يفكر : انه يود الابتعاد عنه . يشعر به يقترب ، والابتعاد ينهي مشكلة ربما تحدث ، ولم يتحرك ، وحين التفت كان أسماعيل المخبر بجانبه . يضع أسماعيل المخبر كف يده اليمنى فوق عينيه بصورة تظللهما ، كأنما اتعبهما نور قوي « الشمس ليست شديدة الوهج ، لكن شعاعها يسيل فوق المارة ، وأرض الشارع وعليهما أيضاً ، والظل ينحدر من جهة الغرب . الشمس توشك أن تغرب » ، وينظر أسماعيل المخبر مع امتداد الشارع قبل ان ينزل يده ، ويراه يستدير اليه ، أصبح وجه اسماعيل المخبر الآن بمواجهته ، قال :

ـ يظهر . . لا أمل أبداً في مجيئه .

وتابع بعد توقف قليل :

ـ يصل الشخص بنفسه أفضل .

قال عادل :

ـ أفضل من أيّ شيءٌ ؟

ـ أنت متأكد انها تأتي !

ـ تقصد سيارة النقل .

ـ طبعاً !

يحني اسماعيل المخبر ظهره ، يراه عادل ينفض التراب المتجمع

داخل ثنية سرواله بضربات متتالية وقوية من كفيه ، يفكر
عادل : انها تشبه الوعاء . يرفع اسماعيل المخبر رأسه تجاهه ،
قال : (انها تكون بهذا الشكل دائما) ، وقال أيضاً : (اريد
التخلص منها) ، قال عادل : (ذلك لا يحتاج لجهد) ، ينظر
اسماعيل المخبر لكفيه بعد ان اعتدل بوقفته ، واخرج منديلاً
يُمسح به ما علق بأصابعه من تراب ، اثناء ذلك سمعه يقول :
(ربما أزعجك) ، (أبداً . . تزعجني لماذا ؟) . وتستمر لحظة
صمت يقطعها صوت اسماعيل المخبر يسأله عن سبب تكدر وجهه
لهذا الحد لم يرد عادل بكلمة ، ليس لانه يكره الاجابة ، ولكن محتاراً
بما عليه قوله ، يعيد اسماعيل المخبر سؤاله بتحمس ، فقابله عادل
بابتسامة ، فتتسع ابتسامة اسماعيل المخبر ، ويسأله ان حدث
له شيء ، قال عادل : (أبداً) ، قال اسماعيل المخبر : (تنتظر
أحداً ؟) ، اجابه عادل بالنفي ، انه ينتظر سيارة النقل . في
فترة الصمت بعد ذلك مباشرة ، ينظر عادل اليه ، ويفكر بالتخلص
منه ، ان وقوف هذا الشخص قربه يوقعه في مشاكل ، وبجانبه
يلتفت اسماعيل المخبر الى المارة ، كأنه يحاول معرفة كل منهم ،
أو يلتفت نحوه فجأة ، ويراه عادل يبتسم ، قال : (بالامكان قطع
المسافة دون حاجة لواسطة هذه السيارة التي لا تأتي) ، قال
عادل بصوت يخلو من أي تعبير : (بعض الاحيان يكون ذلك

جميل جداً) ، (نسير اذن) ، قال عادل بلهجة مؤكدة ، ذلك غير ممكن بالنسبه له الآن ، لاحساسه الحاد بالتعب . ولم يخف على عادل ان اسماعيل المخبر يجهد لأن يسرب المرح لوجهه .

وينظر اسمـــاعيل المخبر لثنية سرواله في الاسفل ، قرب قدميه ، وقال باهتمام :

ـ أظنه يتلف بهذه الصورة .

ـ تستطيع تنظيفه باستمرار ؟

ـ استطيع .

ـ لن يحصل أي شيء له اذن .

ـ أعرف ، لكن تكرار هذه العملية لا يخلو من تعب .

وقال أيضاً ، التفكير بمثل هذه الامور لا يخطر ببال احد ممن لم يرتد البنطلون كوالده ، قال عادل : (والدي !) ، فالثنية في أسفله غير موجودة بالنسبة لشخص غير متعود على ارتداء هذا النوع من الملابس . قال عادل : (والدي !) . واسماعيل المخبر يؤكد له معرفة والده له ، وهو صديقه ، اكتفى عادل بالنظر اليه دون ان يقول شيئاً ، كأنه ينتظر سماع المزيد منه ، قال اسماعيل المخبر :

ـ هل هو بخير ؟

ـ والدي .

ـ طبعاً .

ـ يجلس الآن في البيت .

ـ ولم تفارقه عادته في الحديث ؟

ـ انه يبذل جهده لأختصار كلامه .

ـ يمكن . . تأثير الكبر ، فلم يعد يقدر .

ـ جائز .

ـ بلغه سلامي ، أخبره ان اسماعيل مشتاق اليه جداً .

وقال ايضاً :

ـ انتم في البيت نفسه ؟

وقبل ان يقول شيئاً يسمعه عادل بعد ذلك مباشرة : لا شيء يتمكن من ادخال السرور لنفسه الآن غير رؤيته ، انه يشتاق اليه جداً . قال عادل : (والدي ؟) ، (طبعاً !) .

ويفكر عادل : انه بذلك يريد التحدث اليه اكثر من معرفة جوابه .

ويسمعه ايضاً : والاخوة ؟

ـ جميعهم بخير .

ـ انت يا عادل كبرت ، ولا بد انهم كبروا أيضاً .

يبتسم عادل ، ويضحك اسماعيل المخبر . . يتوقف فجأة .

ـ اني شديد القلق من اجله .

ـ من تعني ؟

ـ والدك .

ـ ماذا حدث له ؟

ـ لأجل عادته في التحدث ، تقول انه لم يعد كما سبق .

يشاهده عادل يتقرب اليه اكثر ، انه بجواره تماماً ، قال ، كان صوته هادئاً :

ـ يمكن . . لم يسمع باستغنائهم عني ، قالوا لي يا اسماعيل حان وقت راحتك ، يمكن انه لم يعرف ، أخبره .

ويسمعه عادل يطلق ضحكة خافتة ، قصيرة ومبتورة .

ـ انني الآن املك وقتاً كاملاً .

وينظر لأسفل بنطلونه ، ينحني ظهره وهو يضرب بكف يده اليمنى فوق الثنية ، ويرفع اليه رأسه .

ـ يمكنني زيارته ، سوف يرحب بي بالتأكيد .

« توسع ظــــل الابنية ، وهو يتقدم من جهة الغرب » ، تقدمت سيارة النقل ، عندما انتبه عادل اليها ، تقدم قليلاً للأمام على الطوار ، ويتقدم اسماعيل المخبر ايضاً ، ويراه عـادل بعد توقفها ينظر اليه بعينين واسعتين ، ويسمعه يقول بأنه هل يفلح عن قريب برؤيته . قال عادل : (ان ذلك ممكن) ، (ضروري

جداً) . يصعد عادل بسرعة ، واسماعيل المخبر في وقفته ، يراه عادل ينظر للمارة الذين يقطعون الشارع « واضح على وجهه ، انه يشعر بألم حاد » .

مايس
١٩٦٧

فترة من الزمن

قال صديقه :

ـ ستذهب معي هذه المرة .

اجاب (احمد) دون ان يلتفت اليه :

ـ ربما استطيع في وقت آخر .

ـ لكن هذا ضروري ، اريد رؤيتك جيداً .

كانا يسيران ببطء ، (الساحة تضج بالشقرة ، مليئة بضوء الشمس دون ظل) ، والروائح تسيل في الساحة ، تجوس فيها نكهة الغبار والحرارة ، والجو ساكن تماماً ، « كان على الناس السير بجانب الجدران للحصول على قليل من الحماية » . وعندما انحرفا الى شارع جانبي ضيق ، خلفا الساحة وراءهما توقف صديقه . وتوقف احمد قربه أيضاً ، وامامهما على الطوار ، صفت بضعة مقاعد في

الفيء . كان النادل ، وهو يرتدي قطعة قماش ملونة تنزل من وسطه الى تحت ركبتيه ، يحمل جردلا ، مليء بالماء ، يرش به الأرض ، فيسيل قرب أرجل المقاعد ، ثم يضع الجردل بعد ان يفرغه ، بجانب صناديق القناني الفارغة داخل بناية المقهى ؛ تتطلع عيناه نحو الجالسين . لم يكن (احمد) يعرف الرجلين اللذين جلس معهما صديقه ، ومع ذلك اضطر ان يحتفظ بابتسامة مجاملة غابت بعد جلسته بلحظة . اخذ مكانه بجانب الشاب ، « كان معتدل الجسم بشكل رشيق ، وزاويتا جبهته تغور داخل شعر رأسه كخليجين » ، وهو يميل برأسه ، مقربا اذنه ناحية رجل كهل يجلس بجانبه ، يرتدي بدلة بلون ابيض ، ويشد ربطة عنق داكنة « وجهه مدور وممتلىء ، يميل للبياض ، وانفه يبرز وسط وجهه كجزء امامي من كرة صغيرة ضغط عليها برفق » وكان صديقه يجلس بجانبه من الجهة الثانية .

ـ مكانك مريح ؟

اومأ احمد له برضى . اعتدل الشاب ، ولأول مرة يترك النظر الى الطريق ، كأنما انتبه اليه الآن ، قال له :

ـ اذا أردت ان يأتي قربك ، اقوم .

ـ لا ، شكراً .

ـ الامر بسيط ، وليس لدي مانع .

يبتسم له خلال ذلك بزاويتي فمه ، ولم يلتفت عنه الا عندما وضع الرجل الكهل كفه فوق ساعده فال الشاب نحوه ، وعاود النظر للطريق من جديد « في الطوار المقابل ترتفع أربعة اعمدة من المعدن تثبت السقف ، تحوط مساحة من الارض ضيقة ، تنفرد بالظل ، انها محطة لوقوف البـاص » وجد احمد صديقه ينظر اليه فقال :

ـ لم يمر مثل هذا الحر !

ـ كأننا داخل فرن ، ولا فرق هناك .

اخرج صديقه منديله ، وحركه امام وجهه بهزات سريعة قوية متتابعة ، واضاف :

ـ لو يستمر طول النهار كارثة . . لكن يتغير .

ـ كيف تعرف ؟

ـ تغيب الشمس في المساء وتذهب الحرارة معها .

يسمع احمد صوت الرجل الكهل مستمراً متصلاً ، وقـال لصديقه .

ـ يمكن ان نذهب .

ـ نذهب الى اين !

ـ اقصد اقوم وحدي .

ـ لا ترجع ما دمت اتيت .

ولم يجب احمد ، استمر صديقه :

ـ ومن ينتظر في البيت . . . ام ، زوجة .

ـ على الاقل ، الواحد يتخلص ، لا اطيق هذا الحر .

ـ صدق . . اذا سلمت على اي منهم داخل البيت ، لا تسمع من يجيب عليه .

نظر اليه احمد ، كان وجهه ساكناً ، ورآه بعد ذلك يفرد اصبعين من كفه المرفوعة . ويضغط بهما فوق أعلى جبهته ، منزلاً جفنيه في اغماضة ، يظن من يراه دون شك ، انه بحاجة لوقت كاف من النوم المتواصل . انقطع صوت الرجل الكهل ، فشاهد الشاب يقول له دون ان يدير رأسه تجاهه :

ـ انت متأكد ؟

ـ طبعاً لا يمكن ان تخونني .

ـ كيف عرفت ؟

الموضوع واضح ، ثم اني لا اصدق اي قول ، انها متعلقة بابني ، وانا احبه ، وبالتالي فهي تحبني .

وبحرك رقبته بحركة سريعة الى الجانبين ، قال الشاب :

ـ اذن لا تخونك .

ـ بالفعل ، وما كنت امانع في تركها لو تأكدت ، لكن مثل هذا الخبر لا يعني شيئاً بالنسبة لي اني واثق .

قال صديقه في صوت واضح :

ـ تريد التخلص مني ؟

ابتسم احمد وهو يميل اليه بجذعه .

ـ لا أفكر بذلك ابداً ، وفي الفترة السابقة ، انت تفعل ذلك .

ـ بصراحة لا يمكن ان افعل مثلك ، تقضي الوقت في مكان واحد ، لا تفكر بمغادرته ، وهذا اشبه بالنسبة لي ، بمن له امل واحد ، أو رغبة مفردة ، في ضربة واحدة يمكن ان ينتهي كل شيء .

التفت اليه الشاب ، ابتسامته تكشف عن اسنانه المصفرة ربما بفعل التدخين ، ولمح عينيه المرهقتين هذه المرة لا تخلوا من مرح خفي . اقترب النادل يحمل قنينتين من عصير الليمون ، واخذ واحدة ، شعر ببرودتها في يده ، ويستلم صديقه الثانية . نظر اليه من جديد ، وجده يأخذ له سيجارة ، ويمد له بالعلبة

ـ تدخن .

كانت تنزل من زاوية شفتيه باهمال ، وشكره . حين نظر أحمد تحت المقعد بالقرب من قدميه وجد عدة اعقاب مبللة . وقبل ان يرجع النادل الى مكانه سأله الشاب .

ـ رأيته ؟

ـ لماذا لا تتركنا من هذا المجنون .

كان احمد ينظف زجاج نظارته بطرف قميصه القطني من الاسفل ، وسمع الشاب يقول له بصوت هادئ :

ـ اني مسرور لمعرفتك .

ابتسم اليه احمد ، وهز له رأسه ، قال نحوه الشاب .

ـ مررت بالساحة عند مجيئك ؟

رفع النظارة ، ينظر الى زجاجها بتفحص ، واعادها لعينيه . تقرب الشاب اليه قليلاً ، كانت ابتسامته تتسع ، ولوى الرجل الكهل عنقه للجانبين وهو ينظر نحوه ، ثم استدار للجهة الثانية ، حيث يجلس صديقه . قال الشاب :

ـ مررت بالساحة عند مجيئك ؟

ـ نعم .

ـ هل رأيت صديقي ؟ بعض الاحيان يجيء هناك .

ونظر اليه احمد ولم يجبه .

ـ منذ مدة انتظر ، ولم اسمع عنه شيئاً .

ـ لا بد وان يجيء . . من الذي تنتظره ؟

ـ صديقي ، تعرفه ؟

ـ لم يحصل لي الشرف .

ـ ضروري ان تعرفه .

واضاف ، كان صوته خافتاً ، .

ـ جئت الى هنا قبل ايام ، ولم يكن موجوداً ، انه دائما لا يتخلف عن المجئ ، رؤيته شيء اساسي ، ومن المؤكد انها مهمة كالهواء ، فاذا لم أره ، بالتأكيد اني لن اتماسك طويلاً ، منذ ان فقدته احسست بقيمة هذا الشخص .

تقدم النادل يحمل الجردل ، ملأه بالماء ، وكانت أرض الطوار جافة ، وحين القى بالماء سال تحت ارجلهم الى الرصيف كان صديقه يدفع ياقة قميصه للخلف ، يترك مجالاً لمرور الهواء .

رأى احمد امرأة تعبر الشارع ، باتجاه محطة وقوف الباص ، تابع خطواتها بعينيه وعندما وقفت في الظل ، تعلقت نظراته بجسمها اللدن ، شديد الانسياب ، دافئاً وكان ينظر اليها وقد فتح عينيه نصف انفتاح ، شاهد من خلال اهدابه المسافة تقترب باطراد اليها . . وكانت تنظر نحوه ، لم يشأ ان يتحرك من مكانه ابداً ، وكان دفؤها حوله يملؤه ، هذا الخد الرخو الصلب المستدير المنسحق على فمه ، وضع يديه فوق خصر المرأة ، ثم حركها على الجانبين ، كان الظهر عارياً ، احس بالراحة وابتسمت بفرح . كانت الكلمة تحدث اضطرابا لشفتيه ، قال : (تقربي اليّ) ، قالت : (تقرب) .

انتبه الى صوت الشاب ، والتفت اليه :

ـ دون شك انه لن ينساني .

ـ لو كان يبادلك التفكير ، لعاد اليك .

ـ من الضروري ان أراه .

ـ هل بحثت عنه ؟

ـ لا .

قال احمد : — انتظره .

صاح الرجل الكهل ، وكان يحدث صديقه :

ـ زوجتي لا تخونني ابداً ، انا متأكد ، ما تقول انت ؟

ـ لا تصدق ما قيل لك .

ـ يتعلق الأمر ان نعرف ، بصفة خاصة ، اننا متقاربان في الرأي ، تصور ان هذا لا اكثر من شيء مضحك تماماً .

ـ الموضوع واضح .

وشاهد احمد الشاب يرفع رأسه اليه .

ـ في كل مرة أوشك ببدأ البحث عنه ، واتوقف في اللحظة التي تسبق البداية ، أفكر بنتيجة لو لم أره ، وهذا صعب .

« اختفت المرأة ، كانت منطقة الظل تحت السقف المعدني لموقف الباص فارغة » يسمع الشاب يقول :

ـ كيف فعل ذلك ؟ !

ـ انها متعلقة بابني ، تحبه ، ابني جميل جـــداً ، شعره اشقر ، وانا احبه .

قال احمد :

ـ اذا فتشت عنه سوف تجده .

ـ قال لي كثيرون ، اين اجده .

ـ لا تترك مكاناً دون التأكد من خلوه منه .

ـ أريد ان افهم ، كيف فعل ذلك ؟

توقف امام احمد رجل كان يسير بمحاذاة الطوار في حدود الشارع .

ـ رجاء استاذ .

قال الشاب .

ـ سمعت هذا النادل يسيء الظن به .

ـ كان يجب انلايقول ذلك .

ـ اعرف في المرة القادمة كيف اجيبه .

ـ رجاء استاذ ، سؤال بسيط .

قال احمد وهو يلتفت اليه .

ـ نعم ؟

ـ سؤال لن يأخذ من وقتك .

كان الرجل يمد يديه الى اسفل ركبتيه حين يلمس سرواله يرفعه الى الاعلى قليلاً فتبرز ساقه بعظام ناتئة ، وعندما يرفع يده يعاود ذلك بعد لحظة .

ـ اين يمكن ان اجد صيدلية ؟

ـ بالتأكيد ، انت تتألم من ساقيك .

ـ لا ، الألم في البطن ، إحس بامعائي تريد ان تخرج بعض الاحيان .

ـ وماذا تشعر في ساقيك ؟

ـ لا شيء امرر الهواء ليرطب الساقين ، السروال طويل ويجب ان ارفعه ليدخل الهواء .

ـ يمكن ان تقصره . . ولماذا تتركه بهذا الطول .

ـ انه غير طويل .

قال الشاب .

ـ سانتظره فترة أخرى .

ـ لن يتأخر عليك .

ـ اين يمكن ان اجد صيدلية ؟

قال احمد ، وهو يدير رأسه للناحية اليسرى .

ـ حين تنتهي من هنا الى الساحة وتجدها في الطرف الآخر .

ـ اشكرك جداً . اشكرك .

ـ ربما يأتي بنفسه ، سانتظره .

قال الرجل الكهل : يجب ان اقوم الآن .

وقف بقامته المعتدلة ، ومد كفه ينظف كتفي سترته ، قبل

ان يبتعد في مشيته البطيئة المطمئنة ، قال صديقه : « تريد ان تأتي معي ؟ » ، فقال احمد « لا ، انني جالس » . « لا يمكن ان امكث في مكان آخر » ، لم يجب احمد ، وقد رأى صديقه يقف قال احمد : « انني جالس » ، تثاءب صديقه ، ثم ابتسم له ، وبعد ذلك ابتعد من جهة الساحة .

شعر احمد بان الشمس تزداد حدة ، لا تطاق مثل هـــذه الحرارة . فتح ازرار قميصه العليا ومسح بطرف كفه العرق العالق فوق جبهته وخديه . نظر للشاب الجالس قربه ، رآه يبسم اليه ، ويقترب منه اكثر ، كان يكاد ان يلامسه . « منطقة الظل الصغيرة تحت السقف المعدني لموقف الباص ، انحرفت قليلاً عن الاعمدة ، تراجع قليلاً للخلف » ، وفكر ان يجد مكانا يزدحم بالظـــل ، وعندما توقف ، رأى ابتسامة الشاب تتسع اكثر ، كانت حزينة .

الرحلة الغامضة

اختلطت أصواتهم المرحبة ، ولم يعد يسمع خلال الضجيج غير « أهلاً مصطفى » و « كيف الحال » ، حادة وممتزجة بالدهشة ، ووجد مكانه بينهم بيسر . . كان يبدو كمن تمتع لتوه بنكتة سارة . .

انه يقاوم فكرة المجيء ، وكل ما يعرفه ان قدميه توقفتا امامهم اخيراً . . حين يخرج من البيت لا يفكر بالذهاب اكثر من مسافة قصيرة ، يقطعها في مسيرة هادئة ويرجع ، يعاود ذلك حتى يتعبه المشي .

تلاشت ابتسامته ، غير ان تعبيراً فخماً عن النشوة يلوح فوق وجهه تلك اللحظة ، وهو في وسطهم تماماً ، وجميع العيون متجهة اليه . . تجاهله الجميع أول الأمر ، ويذكر أيضاً ان

أي شخص منهم لا يجد دافعاً ليلفت رأسه نحوه حين يتكلم ، أو يبتسم بجاملة ، وفي أحيان كثيرة يجد نفسه مضطراً للتوقف بعد البدء فى الكلام ، وهو يجلس بمواجهة الشارع معهم يتابع من يعبر ، وإذا تحدث أحدهم ، فالشكوى من العمل المتعب والمصروف اليومي . اختفت ابتسامته تماماً .

هل يستمر مصطفى معهم بهذه الصورة ، لا أحد ينتبه اليه ام عليه مغادرة المكان ؟ وعندما كانوا يجلسون في الداخل ، ووجوههم مقابلة جهة المدخل ، استطاع ان يضحكهم ، ومع انه يفتقر لروح الدعابة ، تغيرت الامكنة ، وهو يرى التفافهم حوله ، ويشعر بالارتياح . . ليس بالمكان غيره الان « أصبح مهماً لدرجة لا يمكنهم الاستغناء عنه ، حين يصل يجدهم بانتظاره، وحتى لو تكلم بصوت واطيء ، يضطرون لامالة رؤوسهم ناحيته» يمانع أول الامر ، فيزداد طلبهم اليه ، وحين يخشى ان يكفوا عنه ، يبدأ في التحدث ـ هذا الحديث المعاد عن اكلة اليوم وماذا فعلت ببطنه ، وطريقة زوجته في الكلام ، وصوت بكاء ابنه ، يرى الدم ينفر في العروق ، تحمر الوجوه من الضحك وتعرق ، ويشتد الضغط فوق البطون ، ويفكر انها ستنفجر ، يتحول أخيراً الى صراخ وأنين لذيذ ، حتى انهم يدفعون ظهورهم للوراء براحة مع آخر هزة من الضحك ، أو يغادرون أماكنهم

لمدة ، ومع انه يتعب ، ويشعر برأسه يكاد ينفطر من كثرة التحدث ، لا يسكت الا وقت يطلبون منه ذلك ، بل ويلحون فيه ، والعملية لا تخلو من غرابة بعض الأحيان، انه يعلم عدد المرات التي أعاد فيها كلماته ، لكن الراحة تتوزع مع جريان الدم ، لا ينتزع أبصارهم حدث ، عيونهم موجهة اليه فقط ، واذانهم متحفزة « هذا هو يومه الوديع الهادئ » ، لقد زودت حياته بالمعنى الذي يريده « كم المه في السابق هذا الابتعاد عنه » وطيلة الوقت المتبقي قبل مغادرة المكان ـ لم ينته الامر بالنسبة له ، يستلقي فوق سريره ويفكر بالاشياء المفروض عليه قولها في الغد ، عندما يبدأون بمدحه ، يداخله فرح طفولي شرس . وعند العصر يرتدي ملابسه ويخرج مسرعاً ، لا يفكر بغير الوصول للمقهى ، لا ينغصه وهو يقطع المسافة ، سوى خسران التفافهم حوله ، ورغم انه يكرر نفس الاشياء ، لكن بطرق مختلفة ، يمكن انهم يجزعون منها في المستقبل « انتهت الاحاديث » ، تمنى لو يستطيع تنمية موضوعات أخر ، لقد ايقظه هذا الحرص وسط الليل ، وفي تلك اللحظة من الهدوء ، يسمع صوت تنفسه بوضوح ، انه خائف .

انتبه مصطفى اليهم ، رآهم ينظرون اليه بترقب ، كان هناك بالاضافة للرجال الذين يعرفهم ـ عبد الله الذي يواجهه ،

وابراهيم أيضاً ، ويجلس نوري بجواره ، وآخران لم يرهما من قبل ، احدهما لون شعره أحمر ، والآخر بديناً ، وكان على وشك ان يقول شيئاً .

ـ ماذا ؟

تقدم عبد الله اليه بجلسته ، وكان متقوس الظهر .

ـ قلت لهم يظهر عليك التعب .

تحرك إبراهيم ، يتقرب اليه .

ـ اظنك بحاجة لشيء ، قل لي ؟

ـ لا ، شكراً .

ـ قلت لهم يظهر عليك التعب ، شحوب وجهك ، ارتخاء جفنيك . .

اخفض مصطفى بصره . . وهو يخاف ، وهو مشدود لهذا المكان ، لا يستطيع التحرك ، هذه الموضوعات اللعينة هي السبب ، فكر بالامر طويلاً : الاشياء نفسها تتكرر ، لا سبيل لذلك اذن غير الامتناع عن المجيء ، وكانت الأيام طويلة ، في نيته ان لا يرجع الا مع احاديث جديدة ، خلال فترة غيابه يمكنه حفظ مركزه دائما ، والحصول على سروره مع الآخرين ، تزوده بالمعنى الذي يبحث عنه ، ويعذبه أيضاً ، طيلة هذه الفترة وهو عاجز ، لا شيء جديد ، كل شيء متشابه ، كيف يتزود

بأحاديثه الجديدة ؟ انه لا ينفع شيئاً دون ذلك ، والايام السابقة حين كانوا يتجاهلونه لا يمكن ان تنسى .

سمع نوري يقول :

ـ فترة تغييبك كانت طويلة !

وفي فترة الصمت التي أعقبت ذلك ـ وكان مصطفى يفكر بالاجابة ، قال عبد الله :

ـ انتظرناك طويلاً .

هل يمكن استمرار جلسته معهم ، ولا يعتقد رغم تحلقهم حوله انه سيحصل على فرحه مع الآخرين ، عليه ان يتكلم ، يعيد الاحاديث بطرقه الخاصة ، لينتفي موضوع الغرابة في ذلك كل الاشياء معادة ، مكررة ، وربما يراهم ينفرون منه أخيراً ذلك الضحك المتواصل ، ينفرون ، معادة .

انتبه لصوت صاحب الشعر الاحمر :

ـ انني متأكد .

صاح الرجل البدين باندهاش :

ـ يا اخي لا يمكن ان اصدق !

ـ المسألة في منتهى البساطة ، دعها تتناول قرصاً واحداً كل مرة . وستعرف اهميته .

ـ ويمنع الحمل ! ؟

ـ بالطبع !

والتفت صاحب الشعر الأحمر لمصطفى .

ـ انت ايضاً خذ لها واحدة .

قال الرجل البدين !

ـ جربت كل أنواع الاقراص ، ولم تنفعها .

ـ يا اخي ، خذ لها واحدة ، سترى مفعولها ، لا تلح .

اتجه نوري بعينيه للشارع ، يلقي نظرة متفحصة مفاجئة ، تستدير الرؤس حيث تقع نظراته . . امرأة تقطع الطريق بساقين مكتنزتين ، شعرها منسرح لقرب الكتفين ، وقد شدت فوقهما طرفي ثوب ملون يتسع عند الركبتين ، تلوح خلاله مشدة الصدر ، وتبرز الرقبة فى الاعلى بيضاء نقية ، رأى مصطفى الرجل البدين يقف ، ثم يعاود الجلوس ، وحين غابت المرأة استمر الصمت يلف المكان لفترة قصيرة ، « الشمس توشك ان تغرب » بعدئذ قال الرجل البدين :

ـ ضروري الواحد يهيم على وجهه .

التفت اليه عبد الله :

ـ يهيم على وجهه لايّ سبب ؟

قال نوري :

ـ انها جميلة بالفعل .

واعقب ذلك بضحكة هـادئة وطويلة ، وهو ينظر للرجل البدين ، وكان يقف من جديد ، تابع :

ـ اعرف انك ذاهب الآن .

ـ سأرجع .

حين ابتعد ، قال نوري لمصطفى بصوت هامس :

ـ تعرف ، الى أين ذهب ؟

ـ لا أعرف .

ـ كلما يرى امرأة جميلة ، هـذا شأنه ، يتوجه لزوجتـه في البيت .

قال ابراهيم :

ـ وأنا ، اين اتجه ؟

قال صاحب الشعر الاحمر :

ـ أأكد ان هذه الاقراص تنفع .

أجابه ابراهيم بحدة :

ـ الا تعرف السكوت ؟

خلال فترة الصمت المفاجئة ، يراهم مصطفى ينظرون اليه هل يتكلم ؟ ، يبتسم فيبتسمون ايضاً ، يفتح شفتيه ، كأنه يريد ان يقول شيئاً ، فيطبقهما ، انه يخـاف . وبعد فترة ، قال عبد الله :

ـ اظن انك تريد ان تقول شيئاً ؟

ـ ابداً انك واهم .

ـ متأكد ؟

ـ طبعاً .

قال نوري :

ـ اذن لماذا لا تتكلم كالمعتاد ؟

وصاح ابراهيم بلهجة واثقة :

ـ بالفعل .

اعتدل مصطفى بجلسته ، وكانت كفاه تعبث بحدود المقعد تحته ، وحين رفع رأسه اليهم ، اخرج ضحكة هادئة وقصيرة ، ينظرون اليه بلهفة ، « مصطفى ، نحن ننتظرك » فتح شفتيه كان يريد ان يقول شيئاً ، واطبقهما ، ترتخي نظراتهم ، وادرك من لمحة سريعة انهم لا ينظرون اليه الان ، لكن الذي يريد تفاديه ، هذا الوجوم ، هل يمكن ان تستمر الحال بهذا الشكل؟ كان في السابق يجلس ويغادر المكان دون ان ينتبه اليه . فتح نوري ازرار قميصه العليـا ، ثم اخرجه من السروال ، يفعل ذلك بحركة سريعة ، واستدار ابراهيم لجهة الشارع . قال صاحب الشعر الاحمر :

ـ أريد ان انصرف .

نهض عبد الله ايضاً .

ـ وأنا معك .

وتابع وهو يلتفت لمصطفى :

ـ تقوم معنا ؟

ـ افضل ان ابقى .

ه ه ه

امرأته (فتحية) تهيئ العشاء ، وكانت يداها مشغولتان بطهوه . ترفع رأسها اليه وقتما تسمع حركة دخوله ، وتبتسم ، وينتفض قلبه فرحاً . تمد البنت (سعاد) عنقها من فوق سياج السطح الواطئ في الاعلى ، بعد ان هرولت لاستقباله ، « انها الآن تعد لهم الافرشة » ، وتلتفت الزوجة من جديد . يأخذ مكانه غير بعيد عنها متمهلاً فوق تراب الارض المتصلب عند الركن ، امام باب الغرفة الوحيدة الموارب ، فتلوح فتحتها الضيقة كمدخل في الليل . توجه للمكان مباشرة ويجلس ، «التعب حاد ولا يشعر برغبة في تغيير ملابسه » ، ويشبك كفيه ، يطوق داخلهما ساقيه المثنيتين في ارتفاعة لمحاذاة الصدر ، تقبض وجهه اثناء ذلك بانفعال لم يتفرق « الحر شديد ، ونزول الهواء من فوق الساحة المجاورة المكشوفة متقطع وغير ملموس » ، ترتخي

اجفانه بتعب لا يخفى ، يراها خلال ذلك بشكلها الجانبي الممتد، « ظهرها متكيء على الحائط ، وبانحنائة تمد عنقها ناحية ماكنة الموقد الصغيرة المشتعلة بجوارهـا من الناحية الثانية ، وينزل الانبوب النحاسي الضيق الى الارض مسنداً فتحة النـار ، ثم يلتوي صاعداً فى تدرج بطيء لخزان النفط الاسطواني المرتفع لمستوى فتحة النار متصلاً به . ويختفي الوجه بين ضجيج صوت النار الملتهبة ، وتصاعد البخار ، وتصارخ الاولاد فى الخـارج ، وفي مؤخرة الرأس تلوح العصبة الملتفة حوله ، لم تخفهـا العتمة بعد ، يختفي داخلها الشعر ، وهكذا ينزل لون العنق لداخل فتحة ثوبها الواسع عند الصدر ، وينحسر ثوبها الأسود عن كثير ، وساقاها منفرجتان قليلاً ، تمدهما امامها في طلاقة ، يالها من هيئة ! ، وينتفض قلبه داخل صدره »

ترفع رأسها اليه ، « لم يخف لون المغرب شكل اشراقة الضحكة » ، وهي تدفعه خلفها مستنداً على الحائط ، « لكن كثافة الظلمة تزداد فوق الرأس والرقبة وموطن ساقيها المنفرجتين ظلام غير داكن ، وفى نفس الوقت غير مضيء » ، كان الوقت قبل العشاء ولا يزال ضوء الشمس يطوف في الاعالي ، لكن نور الموقد يصل لرقبة زوجته (فتحية) فتشع ، وتلتمع عيناه وبعد فترة قصيرة يسمعها تسأله : « لم تغير ملابسك ؟ » .

كأنما يراها لأول مرة ، تمنى وهو يغذ السير فى عودته لان يجلس ، لأن يراها لا يريد العودة للبيت لأ نه يكره العمل ، انما فقط يريد ذلك لأنه تعب ، لانه يشعر بأن شيئاً فى داخله مختل . . وزوجته (فتحية) تعدّ العشاء ، تمد ساقيها ، كأنما يراها لأول مرة ، والمكان خال من الأولاد الآن ، « صراخهم اثناء الليل ، حركتهم الدائبة في الصعود للسطح والنزول ، والهواء رائق عند الغبش ، نسمات مفتوحة ، لكنه يخرج تلك الساعة » ، لا ينقطع احساسه بهذه المرأة وهو لا يذكر كيف تبدأ هذه العملية عنده ولا أين أو متى ، وشوقه اليها دائم ، بعد انتهائه من العمل يتضاعف بمرات لا تعد ، كأن في داخله بذرت الرغبة اليها منذ الولادة ، متواصلة ، كل لحظة يتأخر فيها طولها مائة الف ذراع في الطول ، ان امرأته (فتحية) هبة من السماء أرسلت اليه ، ينظر اليها في شوق ، اجفانه مرتخية ، ولا يرغب في التحدث ، تدفع أعلى جذعها ، فتميل الرقبة ناحية ضوء الموقد أكثر « انحدرت العتمة المضيئة فتغطي الساقين » ، الهواء صاف لا رائحة للبخار المتصاعد من فوق الموقد ، ولا يسمع صوت اشتعال النار ، ولا أصوات الأولاد ، وامرأته (فتحية) هذه ، ليس في النساء مثلها ابداً .

انهما وحدهما الآن . . كأنه بجلسته ، وفي نظراته نحوها

يتربص للفوز بها ، وهو لا يتربص ، فالشخص لماذا يفعل ذلك بشيء يملكه ، فهذه المرأة امرأته ، ومن حقه ان يفعل بها ما يريده . كأنما يراها لأول مرة ، رغم انه معها قبل ان يخلق أول ابن له بسنة كاملة ، فالحمد لله انجب منها كثرة من الأولاد ، ولم ينته هذا الطريق بعد ، وليس هناك أي مانع اطلاقاً ، يعني ما دامت امرأته (فتحية) موجودة ، لابد ان يتم هذا الفعل كيف ينتابه هذا الشعور الغريب كلما يشرع في العودة ، وحين دخوله للبيت ، وهو يجلس الان ، لابد سيتوازن ، وعندما يقوم يسقط امامها على ركبتيه ، ويبتسم . يرى وجه امرأته (فتحية) عن قرب ، يمد يديه ويضعهما حول خصرها ، يلاحظ الان ادق خيوط الظل في الجهة المضادة للموقد ، فتدفع يده بصوت ليس ساخط ، بل منفرد ، متلذذ ، يبتسم ، فيشرق وجهها ، القا بالفرح ، واذ تهب واقفة فجأة ، يضطرب قلبه بانفعال حي حقيقي ، اشد قوة ، ويتبعها ، تتقدم امامه ، وكان يسير خلفها مسرع الخطو . وفي الداخل استحالت الغرفة الى سواد ، غير ان ضوءاً خافتاً يجهل مصدره يتسرب من شقوق باب الغرفة . يعرف كل خطوة يتقدم بها في الداخل « انها خالية الان ، ومناماتهم التي يحتفظون بها هنا في النهار ، تفرش فوق ارض السطح في المساء » ، ويقف معها ، خيوط الضوء تنزلق على وجهه ووجه

امرأته (فتحية) لها رائحة طيبة ، ورائحة الغرفة كرائحتها ، يداعب سمعة ضحكتها الخافتة المتقطعة ، انه يكاد يبكي ، انه فرح . المكان معتم ، مليء بالترقب ، معتم ، وامرأته (فتحية) امامه ، ذات رائحة نقية أسرعت يداه ترفع طرف ثوبها النازل لقرب القدمين ، وكانت يداها تحل عصبة الرأس ، فيلامس شعرها اثر ذلك وجهه ، ويعرف انه الان مسبول فوق الكتفين فيمرغه فيه ، « لا فرق بين لون الظلمة وشعرها » ، يرفع ذراعيه لخصرها ، يطوقه ، ويضمه اليه بقوة ، ويتنفس ، كأنما تكون أنفاسه هذه هي الاخيرة ، وبعدها لا يذوق الهواء مطلقاً، ويختلط هذا الصوت مع صوت البنت الآتي من فوق السطح ، وهي تنادي الأم . تبتعد أمرأته (فتحية) عنـــه في لحظة ، ويسمع صوت احتكاك الثوب وهي تنزله ، يبتعد عنها ايضاً ، وتسرع هي لقرب الباب ، فيسد رأسها المنحني احدى الشقوق وهي تستمع ، لم يعد الصوت ثانية ، وليس هناك وقع اقتراب قدمين ، ولم تجب امرأته (فتحية) . اقترب اليها من جديد ، لا صوت هناك لماكنة الموقد ، صراخ الأولاد ، البنت فوق السطح ، ضجيج آلة العمل . وكانت عيناه مفتوحتين عن آخرهما محاولاً استيعاب وجهها وسط العتمة ، يرفع ثوبها بحركة واحدة من يديه ، ملامساً الخصر ، انها بين يديه ، وثوبها يسقط بحركة

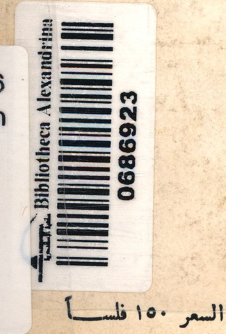
واحدة من يديها متكوماً فوق الأرض ، يسمع حركة سقوطه ، يمرغ وجهه في طراوة النهدين ، وهو يطوقها بقوة أكثر ، وهي تندفع اليه ، وهي بين يديه كقطعة من العجين يحركها كما يشتهي ، وتبتعد امرأته (فتحية) فجأة عنه ، لايعلم كيف تخلصت من بين يديه ، وبين دهشته الحادة ، استمع لوقع أقدام الأولاد تقترب ، وكان صراخهم عالياً ، شجارهم ، فرحهم ربما انهم الان قرب الموقد ، بل خلف الباب ، وصوت تصايحهم في تزايد ، امرأته (فتحية) غير بعيدة عنه لم يلمح الرعب في عينيها ، لكنه ايقن ذلك ، من حركة انفلاتها منه ، كذلك حركتها السريعة وهي تبحث فوق الارض عن ثوبها الاسود ، ومن صوت ارتدائها السريع له . وهي تفتح الباب لتخرج ، لمح العتمة المضيئة في الخارج . تعالى اكثر صوت الأولاد ، وقبل ان يغير ملابسه فكر بأن يراهم ، ثم يغسل رأسه ويديه وساقيه « الحنفية قائمة بجوار الحائط المقابل لباب الدخول . في القسم المكشوف من الساحة » .

° ° °

الفهـــرست

	ص
ملاحظات	٥
مذاق الفاكهة	١٤
جلسة غير سرية	٢٥
الموقعة	٣٨
أمسية الهجرة	٥١
الأجنبي	٦٠
حقل للرغبة	٧١
الظلام فى الخارج	٧٨
مدار العقرب	٨٩
فترة من الزمن	٩٨
الرحلة الغامضة	١٠٩
ملح الأرض	١١٨

١ / ٣ / ١٩٧٠



السعر ١٥٠ فلساً

تصميم الغلاف : مـؤيد الراوي
طبع الغلاف في مطبعة دار الساعة ـ بغداد